الاستعارة وأثرها البلاغي في كتاب الفائق للزمخشري

دراسة بلاغية

د/ أحمد أحمد محمد شكم

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

١٤٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على رسوله الأمين ،المبعوث رحمة للعالمين،وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد فهذا بحث بلاغي بعنوان"الاستعارة وأثرها البلاغي في كتاب الفائق في غريب الحديث للزمخشري ت٥٣٨ هـ "دراسة بلاغية" ،تناولت فيه الاستعارة من خلال الشواهد والأمثلة التي ذكرها جار الله محمود بن عمر الزمخشري في كتابه الفائق ،وغني عن البيان أن الزمخشري عالم مُلْهَم،ومفسر محقق،وفارس من فرسان البلاغة،صاحب أسلوب نادر في عصره،تطالعه البلاغة بكل ذخرها فينفثها كالسحر متعانقة متكاثفة،ألف (الكشاف عن حقائق التنزيل)،وطبق فيه كثيرا مما قرره الإمام عبد القاهر الجرجاني،وأضاف إليها أصولا مهمة،فتميز تفسيره بصبغةبلاغية رائعة،ذاعت وانتشرت وقامت عليها مؤلفات أخرى دارت حول تطبيقاته وإشاراته،هذا في مجال القرآن الكريم،وفي مجال السنة النبوية ألف كتاب الفائق في غريب الحديث،وسماه تلك التسمية ليدل بالاسم على درجة الكمال التي وصل إليها في شرحه،وأنها أعلى مما سُبِق إليه،فكان من أنفس الكتب؛لجمعه المتفرق في مكان واحد مع حسن الاختصار وصحة النقل ،ولكنه اعتمد على كتب السابقين في شرح الغريب والأثر ،وزاد عليها فأجاد

وأبدع،وهذا الكتاب يعد صورة تطبيقية على المفهوم الأعم للمجاز أو الاستعارة أو الكناية أو الاتساع ،وقد تحدث في مقدمته عن بلاغة العرب وما يتصرفون فيها من الاستعارة والتمثيل والتعريض وضروب المجاز والإيجاز ما لو عثر عليه السحرة في زمن موسى عليه السلام لقعدوا مقمورين مقهورين ،ولبقوا مبهوتين[1] ، إلى غير ذلك من تنويه بشأن البلاغة،والتي له منهج ومنحى في كثير من بحوثها،لذا رأيت أن أقوم بدراسة الاستعارة من خلال تعليقاته على الأحاديث والآثار،والتي جاء بها كاملة في بعض المواضع،وبأجزاء منها في مواضع أخرى،بحسب ما وقع له في اطلاعه على مراجعه. ومنهجه في هذا الكتاب أن يذكر النص،ويعقبه بشرح مفرداته ،مشيرا في كثير من المواضع إلى اللون المجازي في التعبير،وأحيانا يذكر ما يستدعي الذكر من المناسبة التي ورد فيها النص، شارحا وموجها في إيجاز،معتمدا على سعة الموروث عنده من لغة العرب شعرا ونثرا،وطرق أدائه،وخصائص أسلوبه ، مما جعله كتابا حافلا باللمحات البلاغية العالية، التي تدل على حسه البلاغي،وبصره بمواقع الكلام،وتذوقه بلسان العرب الفصحاء ، وإحاطته بكثير من

---

[1] ينظر مقدمة كتاب الفائق في غريب الحديث(١/١١)

الأساليب التي تدل على أن ملكة البيان عنده كانت كاملة، وبلاغته فارعة بارعة . هذا وقد كان البحث على النحو الآتي: المقدمة وفيها أهمية الموضوع وفضل المؤلف وثقافته الواسعة، ومنهجه في كتاب الفائق،ثم التمهيد وفيه أمران الأول :بطاقة تعريف بالزمخشري ذكرت فيها اسمه ومولده ولقبه وثناء العلماء عليه وأهم مصنفاته ووفاته،والثاني: تعريف غريب الحديث ، وسبب وجوده في حديث النبي ﷺ ، ثم قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:الاستعارة التصريحية في كتاب الفائق ،ويشتمل على مطلبين:الأول:الاستعارة الأصلية. الثاني:الاستعارة التبعية

المبحث الثاني: الاستعارة المكنية في كتاب الفائق .

المبحث الثالث : الاستعارة التمثيلية في كتاب الفائق .

وقد كان منهجي على النحو التالي:

-التزام النهج البلاغي في التبويب؛لأنه الأقرب إلى الضبط في الدراسات البلاغية،وقد حاولت أن أجمع كثيرا من الشواهد التي أشار الزمخشري إلى مبلغ البيان فيها من جهة الاستعارة ، حتى يتسنى لي وضع اليد على كنوز بلاغية جديدة .

-ذكر النص الموجود في كتاب الفائق -سواء أكان حديثا أم أثرا- ثم أتبعه بكلام الزمخشري فيه،بعد تصنيفه حسب نوع

الاستعارة،ثم أقوم بتحليل كلامه موضحا ما جاء فيه من بلاغة ومناسبة ذلك للقواعد أو المصطلحات التي استقر عليها المتأخرون من علماء البلاغة،وذلك عن طريق إلقاء الضوء الكاشف على المصطلح الذي استخدمه الزمخشري في بيان الاستعارة،مع شرح وبيان لما ورد في كل نص من كلمات غريبة،أو أساليب أدبية،ثم عقدت في نهاية البحث خاتمة ذكرت فيها أهم نتائجه،وفهرسا للمراجع والمصادر التي اعتمدت عليها،وفهرسا آخر للموضوعات لتيسير الاطلاع على البحث

وأحمد الله على فضله وتوفيقه ،عليه توكلت وإليه أنيب .

التمهيد:

أولا: الزمخشري

٦

هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله،أبو القاسم النحوي،اللغويّ،المتكلم،المعتزلي،المفسر.[1]

ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزَمَخْشَر،قرية من قرى خُوارزم وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله.

قال ابن السمعاني:كان ممن برع في الأدب،والنحو،واللغة ، وكان رأسا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان،وله نظم جيد.

دخل خراسان عدّة مرات،وما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه وتلمذوا له.وكان علاّمة الأدب،ونسّابة العرب،تُضْرَب إليه أكباد الإبل.

وقال ابن خلكان:كان إمام عصره وكان متظاهراً بالاعتزال داعية إليه.روى عنه بالإجازة أبو طاهر السلفي،وزينب بنت

---

[1] تنظر ترجمته في الأنساب ٦ / ٢٩٧، ٢٩٨، نزهة الألباب: ٣٩١ - ٣٩٣، المنتظم ١٠ / ١١٢، معجم البلدان ٣ / ١٤٧، معجم الأدباء ١٩ / ١٢٦ - ١٣٥، اللباب ٢ / ٧٤، الكامل ١١ / ٩٧، إنباه الرواة ٣ / ٢٦٥ - ٢٧٢، وفيات الأعيان ٥ / ١٦٨ - ١٧٤، المختصر في أخبار البشر ٣ / ١٦، إشارة التعيين: الورقة ٥٣، ٥٤، البدر السافر ورقة ١٩٣، تاريخ الإسلام: وفيات ٥٣٨، ميزان الاعتدال ٤ / ٧٨، العبر ٤ / ١٠٦، دول الإسلام ٢ / ٥٦، تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٨٣،

الشعري.وروى عنه أناشيد إسماعيل بن عبد الله الخوارزمي،وأبو سعد أحمد ابن محمود الشاشي، وغيرهما .

مؤلفاته:

له تصانيف بديعة أشهرها تفسيره المعروف بالكشاف و"الفائق في غريب الحديث "و"أساس البلاغة"و"ربيع الأبرار ونصوص الأخبار"في الحكايات و" متشابه أسماء الرواة"و"الرائض في الفرائض"و" المنهاج في الأصول"و"المفصل"في النحو و"الأنموذج اقتضبه من المفصل و"الأحاجي النحوية""وأطواق الذهب".

وفاته: تنقل في البلدان ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم).وتوفي فيها ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة .

ثانيا:تعريف الحديث والغريب وسبب وجوده في الحديث

الحديث : " ما يضاف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلقية أوخَلقية ، والسنة مرادفة للحديث " [1]

غريب الحديث وسبب وجوده :

غريب :" يقال في كلام العرب : غَرُبت الكلمة غرابة . إذا

---

[1] تدريب الراوي للسيوطي (١/٤٥).

غمضت وخفيت معنى ، وغرب الرجل يغرب غربًا : إذا ذهب الرجل وبعد .والغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد من الفهم كالغريب من الناس ، وهو يستعمل على وجهين :

" أحدهما : أن يراد أنه بعيد المعنى غامضه لا يتناوله الفهم إلا عن بُعد ومعاناة فكر، والوجه الآخر : أن يراد به كلام من بعدت به الدار ، ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب ، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استعربناها " [1].

ولقائل أن يقول:كيف يكون في حديث رسول الله ﷺ وكلام صحابته الذين تربوا في مدرسته غريب ووحشي،وهو القائل:" أنا أفصح العرب بيد أني من قريش "،وأصحابه كانوا أفصح الناس لغة،وأبينهم منطقا؛لأنهم سمعوا النبي ﷺ وقبسوا من بيانه وبلاغته .ويعلل الإمام الخطابي كثرة مجيء الغريب في حديث رسول الله ﷺ فيقول:" إنهﷺ بُعث مبلغاً ومعلماً ،فهو لا يزال في كل مقام يقومه وموطن يشهده،يأمر بمعروف وينهى عن منكر،ويشرع في حادثة،ويفتي في نازلة،والأسماع إليه مصغية ، والقلوب لما يرد عليها من قوله واعية،وقد تختلف عنها عباراته ،ويتكرر فيها

---

[1] غريب الحديث للخطابي (١/٦٧).

بيانه؛ليكون أوقع للسامعين،وأقرب إلى فهم من كان منهم أقل فقهاً ، وأقرب بالإسلام عهدا، وأولوا الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يُرعونها كلها سمعا، ويستوفونها حفظا،ويُؤدونها على اختلاف جهاتها،فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدة ألفاظ تحتها معنىً واحد، وذلك كقوله: "الولد للفراش وللعاهر الحجر"وفى رواية ثانية:"وللعاهر الأثلب"وقد مر بمسامعي ولم يثبت عندي:"وللعاهر الكُنُكث " .وقد يتكلم ﷺ في بعض النوازل ، وبحضرته أخلاط من الناس قبائلهم شتى ، ولغاتهم مختلفة،ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية، وليس كلهم يتيسر لضبط اللفظ وحصره أويتعمد لحفظه ووعيه، وإنما يستدرك المراد بالفحوى،ويتعلق منه بالمعنى،ثم يؤديه بلغته ويعبر عنه بلسان قبيلته،فيجتمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد."[1]

وقد أورد ابن الأثير كلاما في نشأة الغريب وسببه،و أهم الدواعي التي أدت إلى وجوده كما يلي :

❁ كان الله . تعالى . قد أعلم نبيه ما لم يكن يعلمه غيره ، وكان أصحابه يعرفون أكثر ما يقوله ، وما جهلوه سألوه عنه

---

[1] غريب الحديث (٦٨/١).

ﷺ فيوضحه لهم ، ولم يتيسر ذلك بعد وفاة النبي ﷺ.

❁ كان اللسان العربي في عصر الصحابة صحيحا لا يتداخله الخلل إلى أن فتحت الأمصار وخالط العرب غير جنسهم فامتزجت الألسن،فتعلم الأولاد من اللسان العربي ما لابد لهم وتركوا ما عداه .

❁ استحال اللسان العربي أعجميا في عصر التابعين،فصرف العلماء طرفا من عنايتهم فألفوا فيه حراسة لهذا العلم ". [1]

" على أن مما نفع الله به الناس في بيان رسول الله أن الكلمة الغريبة في الحديث الشريف كثيرا ما تفهم من السياق،بحيث يستطيع قارئ العصور المتأخرة أن يصل إلى مدلولها بجهد قريب ، وليس معنى ذلك أن كل ما ورد من الغريب في حديث محمد ﷺ كان مأنوساً في عصره لدى جميع الناس ؛ إذ إن الأديب المكين قد يضطر إلى استعمال لفظ خاص مهما غمض لدلالته وحده على ما يريد من معنى ،ومن تمرس البيان يعلم أن لكل لفظ من معجم الكاتب مكانة خاصة في نفسه، ودلالة خاصة توجب عليه أن يلتزمه في وضع معين؛ليحمل إلى الناس ما يريد

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٤،٥) بتصرف.

أن يقول ، وتلك حقيقة أشار إليها جهابذة النقد الحديث" [١]

لذا أصبح هذا الفن من اللوازم التي لا بد منها في فهم الحديث والأثر وإدراك معانيهما ، وعظم أمر الغريب ، فأحجم أكثرهم عن ركوبه تعظيما لرسول الله ﷺ وصوناً لحديثه ؛ لأنهم خافوا أن يتكلموا فيه بغير حجة ولا بينة ؛ لما يقوم على الشرح من نتائج تتعلق بها أحكام شرعية .

ولم يخض هذا البحر أو يركب لجه إلا أهل الرسوخ والتثبت الذين جمعوا إلى جانب رواية الحديث البصر بمواقع الكلام العربي .

الاستعارة

تعريف الاستعارة:

---

[١] البيان النبوى د/ محمد رجب البيومى ص٢٥٨.

في اللغة:من العارية وهي معروفة،ومعنى أعار:رفع وحول،" ومنه إعارة الثياب والأدوات ،واستعار فلان سهما من كنانته : رفعه وحوله منها إلى يده " [١]

وعلل ابن الأثير تسميتها استعارة بقوله:" لأن الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة،وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الأشياء، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة ما،يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئا؛وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئا؛إذ لا يعرفه حتى يستعير منه،وهذا الحكم جارٍ في استعارة الألفاظ بعضها من بعض،فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين في نقل المستعار من أحدهما إلى الآخر"[٢] .

وبهذا المعنى يتضح مفهومها الاصطلاحي؛لأنه ناتج عن المعنى

---

[١] لسان العرب لابن منظور (عير)(٦/٢٤٥) وينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي(٢/١٤١،١٤٠)

(٢) المثل السائر لضياء الدين ابن الأثير(٢/١٤٠، ١٤١)، ١٤٨٩

اللغوي وفرع عنه،وقد عرفت الاستعارة بتعاريف كثيرة عبر تاريخها الطويل ومع كثرة هذه التعريفات إلا أنها تلتقي جميعها حول معني واحد.

وهو:نقل اللفظ من معناه الموضوع له إلي معني آخر،لعلاقة بينهما،وقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى.وبذلك عرفها علماء البلاغة فقالوا:"استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه،مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى"[1]وفي بيان منزلتها وسر جمالها وخصائصها يقول شيخ البلاغة العربية:"ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا،وتوجب له بعد الفضل فضلا...ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها:أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ،حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر،وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر،وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة،ومعها يستحق وصف البراعة،وجدتها تفتقر إلى أن تُعيرها

---

[1] ينظر في ذلك "بحث الاستعارة نشأتها وتطورها (٧٢- ٧٤) أ.د /محمود السيد شيخون ضمن كتاب بحوث في البيان وأسرار البلاغة ٤٢،٤٣ والتصوير البياني د/ حفني شرف صـ١٩٣ ،ودراسات في علم البيان أد/ فوزي السيد عبد ربه صـ ١٩٧ ،١٩٨

حُلاها...فإنـك لـترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحا،والأجسام الخرس مُبينَة،والمعاني الخفية بادية جلية..."[١]

" والاستعارة ليست إلا تشبيها مختصرا ، لكنها أبلغ منه ...؛ لأنها تجدي الكلام قوة ، وتكسوه حسنا ورونقا، وفيها تثار الأهواء والإحساسات"[٢]

المبحث الأول: الاستعارة التصريحية

أولا: الاستعارةالأصلية:

تناول الزمخشري الاستعارة الأصلية على صور متعددة :

إحداها : أن يصرح بلفظ الاستعارة أو ما اشتق منه دون أن يشير إلى كونها أصلية من هذا ما ذكره في قول سعيد بن أبي وقاص:رأيت أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه يوم بدر وهو يقول:

بازل عامين حديث سني   سنحنح الليل كأني جنّي

لمثل هذا ولدتني أمي   ما تنقم الحرب العوان مني

قال الزمخشري:«سنحنح الليل كأني جني» وروى «سمعمع كأنني من جن»والسنحنح والسمعمع مما كرر عينه ولامه معا، وهما من سنح وسمع، فالسنحنح:العريض الذي يسنح كثيرا، وإضافته إلى

---

(١) أسرار البلاغة (٤٢ ، ٤٣)

(٢) جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي (٢٣٩-٢٤١) .

الليل على معنى أنه يكثر السنوح فيه لأعدائه والتعرض لهم لجلادته،والسمعمع:الخفيف السريع في وصف الذئاب،فاستعير،والذئب موصوف بحدة السمع،ولهذا قيل لولده من الضبع: السِّمع، وضرب به المثل فقيل: أسمع من سِمْع.

السن:أنثت في تسمية الجارحة بها،ثم استعيرت للعمر، للاستدلال بها على طوله وقصره،فقيل: كبِرتْ سني؛مبقاة على التأنيث بعد الاستعارة،ونظيرها اليد والنار في إبقاء تأنيثها بعدما استعيرتا للنقمة والسمة"[1].

وبالتأمل في كلام صاحب الفائق يتبين لنا أن في كلام الإمام عليٍّ استعارتين:الأولى في وصف نفسه بـ «سنحنح» فجعل نفسه كالسنحنح الذي يتعرض لأعدائه ولا يخافهم،ولا يصل الأمر عند النهار،بل يكون في الليل،وقد دلت الاستعارة على قوته وبأسه وقدرته على مواجهة أعدائه وقد كان كذلك،فظل سيدنا عليّ يعيش بين الناس رجلا وبين الرجال بطلا وبين الأبطال مثلا.

أما الاستعارة الثانية فجاءت في قوله: «حديث سني» وأشار

---

(١) الفائق في غريب الحديث (١/١٠٦)وينظر أساس البلاغة (سنن)، وغريب الحديث للخطابي(٢/١٧١)

إليها الزمخشري وصرح فيها بالاستعارة فقال:"استعيرت للعمر" وأشار إلى تأنيثها بقوله:"أنثت في تسمية الجارحة بها"،ولا يخفى أن المستعار منه وهو السن محسوس،والمستعار له" العمر" معقول ومن هذا القبيل الذي صرح فيه بلفظ الاستعارة ما ذكره من استعارة العُجَر والبُجَر في كلام سيدنا علي- رضي الله عنه - حين وقف على طلحة يوم الجمل وهو صريع، فقال:"اعزز عليّ أبا محمد أن أراك مجدلا تحت نجوم السماء في بطون الأودية، شفيْتُ نفسي،وقتلتُ مَعْشَري!إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي!.

قال الزمخشري: "المجدّل: المطروح، والعُجَر: العُقَد في العَصَب، ومنه عُجَر العصا.والبُجَر :العروق المتعقدة في البطن خاصّة، وقيل: العُجَر النُّفَخ في الظُّهور،والبجر في البطون، فوُضِعَتْ موضع الهموم والأشجان على سبيل الاستعارة"[1].

فقد ذكر -رحمه الله- أن العُجَر والبُجَر في كلام الإمام عليّ على سبيل الاستعارة ؛ لأن العُجر مستعار للهموم والعيوب الظاهرة ، والبُجَر مستعار للهموم والعيوب الباطنة،ولا يخفى ما في هذه الصورة من إيحاء شديد بحالة سيدنا عليّ وكراهيته لحال سيدنا

---

(١) الفائق (١/١٩٦) وينظر مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض(٢/١٢٨)وفتح الباري لابن حجر(٩/٣٦٠)وكشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/١١٨٩).

طلحة يوم الجمل،وقد زاد من جمال الصورة الطباق بين العجر والبجر فقيل:إن العجر في الظهر خاصة،والبُجر في البطن وزاد في تحسين الكلام وروعته ما بينهما من جناس ناقص مضارع ،وقد جاء سلسا غير متكلف في موضعه،مما أضفى على الكلام رونقا وبهاءً.وغنى عن البيان أن المستعار منه محسوس وهو العجر والبجر، والمستعار له معقول وهو الهموم والأحزان،وأرى -والله أعلم- أن التعبير بالعجر والبجر من قبيل الكناية عن العيوب الظاهرة والباطنة،بما في ذلك من تلميح وإشارة إلى المعاني التي يقصدها من وراء ستار .

ومن هذا النوع ما ذكره من استعارة الاعتباط وهو النحر بغير علة، للقتل بغير جناية في قوله ﷺ : «...وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا فإنه قود إلا أن يرضى وليُّ المقتول بالعقل».

قال الزمخشري:"الاعتباط:النحر بغيرعلة،فاستعاره للقتل بغير جناية [1] 'فقد عرض للاستعارة الأصلية،لكنه لم يفصل القول فيها،وأشار إلى استعارة المصادر فيما يكون الفعل فيه مجازا ،ويلاحظ أن كلمة الاعتباط مستعارة للقتل بغير جناية على سبيل التصريحية الأصلية،ولو أجرينا الاستعارة في الفعل

---

(١) الفائق (٢/٦٢).وينظر غريب الحديث للخطابي(٢/١٦٣)

«اعتبط» كانت من قبيل التبعية.

ومن تلك الصور التي صرح فيها بالاستعارة ما ذكره من استعارة ريش الطائر للكسوة التي يتزين بها، فقد روى أن عليا -عليه السلام- اشترى قميصا بثلاثة دراهم وقال: «الحمد لله الذي هذا من رياشه».

قال الزمخشري: «الريش: الكسوة التي يتزين بها، استعير من ريش الطائر؛ لأنه كسوته وزينته، قال الله تعالى: ⬇
⑧ꞵ⓿◷◆☐↖③ ◆◆◆◆◆◆◆
◆◆◆◆◆◆◆◆◆ ◆◆◆◆ ◆◆◆◆ ↑[1]

والرياش يحتمل وجهين: أن يكون جمع ريش، وأن يكون مفردا مبنيا من لفظه على فعال للباس ' ويقال للباس الزينة رياش»[2] فقد ذكر أن اللباس شبه بالريش ثم حذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، والطرفان حسيان، وقد أبرزت الاستعارة قيمة اللباس في ستر العورة مع الظهور بالزينة التي يحبها الإنسان، واعتمدت على عناصر تألفها النفس الإنسانية وتسعى إلى الاستمتاع بها ألا وهي صورة الريش الملون الذي يكون على

---

(١) سورة الأعراف: ٢٦ تفسير الألوسي المجلد الرابع (٣٤٤/٨).

(٢) الفائق (٩٨/٢) وينظر حاشية الشهاب على البيضاوي (٢٦٧/٤) وتفسير التحرير والتنوير (٧٥/٨).

الطائر،وفي ذلك حث المسلمين على التزين والتجمل في الثياب وبخاصة عند الذهاب للمسجد،كما قال ربنا تبارك وتعالى:
[illegible] (١).

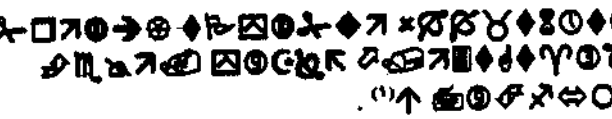

ومنها ما جاء من استعارة الطبع للدنس والشين في الخلال فقد جاء عن النبي ﷺ :"استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبَع".
قال الزمخشري:"أن يؤدي إلى شيْن وعيب،وأصل الطبَع: الدنس والصدأ الذي يغشى السيف فيغطي وجهه،من الطبْع،وهو الختم،يقال:سيفٌ طِبع؛ثم استعير للدنس في الأخلاق والشين في الخلال.ومنه قول عمر بن عبد العزيز- رحمه الله-:لا يتزوج من الموالي في العرب إلا الأشِر البَطِر،ولا يتزوج من العرب في الموالي إلا الطَّمِع الطَّبع وقال:

لا خيرَ في طمعٍ يهدي إلى طَبَعٍ   وغُفَّةٌ من قِوام العيش تَكْفِيني"(٢).

يفهم من كلامه رحمه الله- أن الطبَع -بفتح الباء- وهو ما يعلو السيف من صدأ قد استعير لما يغطي صاحبه من صفات ذميمة وعيوب قادحة فيه ،وقد غطته هذه المعايب حتى أصبحت عادة

---

(١) الأعراف (٣١)

(٢) الفائق (٣٥٢/٢).

عنده، لذلك عبر عنها بالطبع، وقال:"ومن الطبع وهو الختم"، وهذا إشارة منه -رحمه الله- إلى أن العيوب والآثام قد صارت حاجزا ومانعا من نفوذ الحق والإيمان إلى قلبه؛ لأن ذلك أصبح عادة عنده، ثم استشهد على صحة المعنى الذي ذكره بما جاء في كلام العرب نثرا وشعرا مما يدل على نبوغه وإحاطته بالكثير من دقائق السياق في النسق النبوي،ويشهد له بالتفوق في هذا الباب. وبذلك- أيضا- يكون الإمام الزمخشري قد كشف عن روعة التعبير النبوي وجماله وسر تفوقه،فوقعت هذه العبارة موقعها في النفس البشرية،فمتى وعاها السامع واستوعبها القارئ تمثل المعنى وأتمه في نفسه، وحينئذٍ يدرك خطورة الطمع حيث جعله النبي ﷺ هاديا إلى معايب الأفعال ومدانسها، ويوقع صاحبه في مذامِّها ومناقصِها.

ومن الصور التي صرح فيها بالاستعارة ما ذكره من استعارة العاثور وهو الحفرة التي تحفر لصيد الحيوانات للخطة والورطة في حديث النبي ﷺ: «إن قريشا أهل أمانة، من بغاها العواثير كبه الله لمنخريه»[1] وروى العواثر.

---

(١) ذكره الإمام الشافعي في الأم (١/١٦٢) برواية إسماعيل بن عبيد بن رفاعة الأنصاري عن أبيه عن جده ط/ دار المعرفة بيروت ١٣٩٣هـ - الثانية.

قال صاحب الفائق:«العواثير:جمع عاثور،وهو المكان الوعث؛ لأنه يعثر فيه، والعافور، مثله؛من العفر:وهو التراب؛كأنه يكب سالكه فيعفر وجهه...فاستعير للورطة والخطة الموبقة،فقيل: وقع فلان في عاثور شر،وعافور شر،ولا تبغني عاثورا؛ أي: لا تحفر لي ولا تبغني شرا»[1]،فقد صرح الزمخشري بلفظ الاستعارة،وذكر أن الخطة والورطة تشَبَّه بالعاثور أو العافور وهو الحفرة التي تحفر لصيد الحيوانات، بجامع ترتب الهلاك في كل، ثم حذف المشبه وأطلق لفظ المشبه به عليه.والمستعار منه وهو العاثور محسوس، والمستعار له وهي الخطة والورطة معقول من استعارة المحسوس للمعقول،فأبرزت المعنى وقربته من نفس المتلقي، هذا بالإضافة إلى ما فيها من حسن التعبير بالعاثور فقربت المعنى؛لاعتمادها على صورة من صور الطبيعة الملموسة، وقد ساهم هذا الأسلوب البياني في المبالغة في تعظيم مكة وفضل قريش، وحرمة بيت الله الحرام، وهلاك من أراده بسوء.

ومن تلك الصور ماجاء في قوله ﷺ : «إياكم ومشارّة الناس فإنها تدفن الغُرَّة وتظهر العُرَّة»[2].

---

(١) الفائق (٢/٣٩٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان(٦/٤٩٥).

قال الزمخشري: "أصل الغُرَّة البياض في جَبْهَة الفرس، ثم استُعيرت، فقيل في أكرم كل شيء: غُرَّته، كقولهم: غرة القوم لسيِّدهم. والغُرَّة: القذَر، فاستعيرت للعيب والدَّنَس في الأخلاق وغيرها، فقالو: فلان غُرَّة من الغُرَر، والمعنى: أنهم إذا نالهم منك مكروه كتموا محاسنك ومناقبك، وأبْدَوْا مساويك ومثالبك»[1].

يفهم من كلام الزمخشري أن في التعبير بالغرة والغرة استعارتين:

الأولى: استعارة الغرة وهي البياض الموجود في جبهة الفرس للكريم من كل شيء، ومن ثَمَّ قال ﷺ: «أمتي الغر المحجلون» فاستعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه، وفي هذا دليل واضح على أن الصفات الحميدة والطاعة لله- عز وجل - يكون لها أثر بالغ في الوجه حيث تبيضه وتميزه عن غيره، ومن ثم تميزت أمة النبي محمد ﷺ عن غيرهم لصلاح حالهم وصحة عقيدتهم. الثانية: استعارة الغُرة وهي القذر للعيب والدنس في الأخلاق، ثم حذف المشبه واستعير لفظ المشبه به له على سبيل التصريحية الأصلية، وقد وقع المشبه به مفعولا به في الحديث واستعارتها لمثالب الناس وعيوبهم؛ لأن الذي يعيب الناس ويخاصمهم يقابل

---

(١) الفائق (٣/٦٢).

بمثل ما يفعل ويقترف،فيهتم الناس بإظهار معايبه ومساوئه،ويكتمون محاسنه ومناقبه،وهذا هو معنى«دفن الغرة وإظهار العرة»،وقد أشار إليه صاحب الفائق،مما يدل على ذوقه وفهمه للأسلوب النبوي بطريقة تسيطر عليها أفانين البراعة والبلاغة وحسن البيان.

قال الشريف الرضي:«وهذه استعارة عجيبة،المراد بها أن مشارّة الناس تظهر المعايب وتخفي المناقب؛لأن المفاخر المشاغب لا يقدر لمخاصمه على مثلبة إلا بحثها،ولا يجد له منقبة إلا دفنها،فكأنه يميت محاسنه ويحيي مساويه،وجعل عليه الصلاة والسلام الغُرة في مكان المنقبة لتحمل الإنسان بنشرها،وجعل العُرة في مكان المثلبة لتهجن الإنسان بكشفها "[1].

ومن هذا النوع ما جاء في قول دفرة أم عبد الله بن أُذَيْنَة:كنا نطوف مع عائشة رضي الله عنها،فرأت ثوبا مُصَلَّبا،فقالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا رآه في ثوب قضبه».

قال الزمخشري:«الضمير للتصليب[2] [يعني في «قضبه»] والقضب:القطع،ومنه القضب للرطبة؛لأنه يقضب،واقتضاب

---

(١) المجازات النبوية (ص١٢٦).

(٢) الثوب المصلب: الذي فيه نقش أمثال الصلبان.

الدابة:ركوبها قبل أن تراض؛لأنه اقتطاع لها عن حال الإهمال والتخلية،ثم استعير منه اقتضاب الكلام؛وهو ارتجاله من غير تهيئة»[1].فقد صرح بلفظ الاستعارة،ودل على معنى مجازي في التعبير بالقضب،حيث أشار إلى أن القضب يستعار لارتجال الكلام من غير استعداد،وهكذا كان رحمه الله متتبعا لألوان المجاز وبخاصة الاستعارة في الأحاديث والآثار،يشرح ما فيها من ألوان المجاز،مع ميله إلى الإيجاز،ومع ذلك قد دل على أسرار رائعة، ومعانٍ بيانية ذكية،ويستشهد عليها بما جاء في كلام العرب،من ذلك ما جاء عن عائشة -رضي الله عنها- دخل علي رسول الله ﷺ « تبرق أكاليل وجهه».

قال الزمخشري: «الإكليل: شبه عصابة مزينه بالجوهر،قال الأعشى في هودة بن علي:

له أكاليل بالياقوت فصلها صَوَّاغُها لا ترى عيبًا ولا طَبَعًا.

جعلت لوجههﷺ أكاليل على سبيل الاستعارة كما جعل لبيد للشمال يدا في قوله:"إذ أصبحت بيد الشمال زمامها"،وهو نوع من الاستعارة لطيف دقيق المسلك،وقيل:أرادت نواحي وجهه وما أحاط به من التكلل وهو الإحاطة.والقول العربي

---

(١) الفائق (٣/٢٠٦).

الفحْل ما ذهبتُ إليه»[1].

بالتأمل في كلام الزمخشري يتبين لنا أنه ذكر وجهين في حديث السيدة عائشة -رضي الله عنها- على عادته في كتابه الفائق، والذي كثيرا ما يذكر فيه المعاني التي يحتملها النص،وفي كثير من الأحيان لا يرجح بينهما،ولا يلقي الضوء الكاشف على القول الراجح،أو يظهر مكان الضعف في القول المرجوح،وقد رجح هنا المعنى المجازي الذي ذكره في تفسير الأكاليل مما يدل على أنه يتلمس الإحاطة والاستيعاب،وخاصة إذا كان موضع الشاهد بلاغيا،مما كان له دور بارز في تفسير المعنى تفسيرا مؤثرا،وهذا يدل أيضا على براعته في استكشاف الأسرار البلاغية في الأحاديث والآثار.وتفسيره هنا يحتمل وجهين:

الأول: أن السيدة عائشة رضي الله عنها جعلت الأكاليل تكسوا وجهه كله؛فوجهه زاهر مضيء مشرق،وقد أشرب بياضه بحمره،ويمكن أن يؤيد هذا الوجه بما جاء في صفتهﷺ أنه كان أزهر ولم يكن بالأبيض الأمهق،وهو الشديد البياض الذي لا يخالط بياضه شيء من الحمرة كلون الجص أي : الجير»[2].

---

(١) الفائق (٣/٢٧٣).

(٢) لسان العرب (توج) وينظر عمدة القارئ للبدر العيني (٢٣/٢٦٤).

الثاني:أن السيدة عائشة رضي الله عنها استعارت الأكاليل لنواحي وجهه وأطرافه؛لأن الإكليل يشبه الحلق التي تحيط بوجهه الكريم،وهو احتمال ضعيف لما تبني صيغة الفعل«قيل، وتأخيره،وقد رجح الزمخشري الوجه الأول فقال:والقول العربي الفحل ما ذهبت إليه،وقد صرح في شرحه بلفظ الاستعارة بل وأدرك ما فيها من لمحة متذوقة،وما انطوت عليه دقائق وحسن بيان فقال: وهو نوع من الاستعارة لطيف دقيق المسلك.

وعلى الوجه الأول تكون الاستعارة من قبيل المكنية حيث حذف المشبه به وهو الحلقة ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأكاليل، ويؤكد ذلك استشهاده بقول لبيد[1]:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها.

وهو من قبيل المكنية حيث شبه الشمال وهي الريح في تصريفها القوة والتحكم في طبيعتها بالإنسان الذي يتصرف في الأمور، ثم تناسى التشبيه،ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليد،وقد أفاد ذلك المبالغة في تصرف الريح تصرف الإنسان القادر، ولذلك قال الزمخشري:"جعل لوجهه الأكاليل"

---

(١) البيت من الكامل وهو في ديوانه ص ١٠٧ وينظر أسرار البلاغة (ص٤٥).

،كما جعل لبيد للشمال يدا.وعلى الوجه الثاني تكون الاستعارة من قبيل التصريحية الأصلية،وقد وقعت الأكاليل فاعلا للفعل«برق»واستعيرت لنواحي وجهه وأطرافه ثم حذف المشبه،واستعار لفظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية؛لأن الإكليل يشبه الحلقة التي تحيط بالوجه.

وقد أفادت الاستعارة المبالغة في جمال وجه النبيﷺ،وروعته وجلاله وبهائه.

ومن هذا الضرب الذي صرح فيه الزمخشري بلفظ الاستعارة ما ذكره من استعارة«النُّعَرَة»وهذا ذباب أزرق يدخل أنف البعير والحمر أو الخيل للنخوة والأنفة والكِبْر.قال رحمه الله- في قول عمر –رضي الله عنه-:لا أُقْلِع عنه حتى أطير نُعَرَتَه ــ ورُوِي: حتى أنزع النُّعَرَة التي في أنفه.«النعرة: هي ذباب أزرق له إبرة يلسع بها يَتَوَلَّعُ بالبعير ويدخل أنفه، فيركب رأسه.سميت نُعَرة لنعيرها، وهو صوتها، وقد نَعِر البعيرُ فهو نَعِر، فاستعيرت للوصف بالنخوة والكِبْر؛ لأن المنخوَّ راكب رأسه، فقيل: لأطيرَنَّ نُعَرتك، أي: لأذهبَنَّ كِبْرك، وقالوا: أُنُوف نواعر، أي: شوامخ...، وفي حديث أبي الدرداء –رضي الله عنه- إذا رأيت

نُعَرَة الناس، ولا تستطيع تغييرها فدعها حتى يكون الله يعيرها

أي: كبرهم وجهلهم[١]».فكلامه -رحمه الله- صريح في تشبيه النخوة والأَنَفَة والكِبْر بالنُّعَرة التي تدخل أنف البعير،وهي من قبيل استعارة محسوس لمعقول،فقربت المعنى ووضحته،ولا يخفى ما فيها من ذم الكِبْر والتعالي على الناس وتقبيح ذلك،بتصوير المتكبر وقد امتلأ رأسه بالطنين الأجوف والأصوات الفارغة من المضمون،وهذا أمر مستكره يشمئز منه الناس،وتعافه الطباع السليمة والأذواق الرفيعة.

ومن هذه الصورة ما ذكره في قول النبي ﷺ : «أجدُ نفس ربكم من قبل اليمن».

قال الزمخشري:«نفس:هو مستعار من نفس الهواء الذي يرده المتنفس إلى جوفه فيبرد من حرارته ويعدله،أو من نفس الريح الذي يتنسمه، فيستروح إليه،وينفس عنه،أو من نفس الروضة، وهو طِيبُ روائحه الذي يتشمَّمه،فيتفرج به لما أنعم به رب العزة،من التنفيس والفرج وإزالة الكربة،ومنه قولهﷺ:«لاتسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن».وقوله:من قبل اليمين:أراد به ما تيسر له من أهل المدينة من النصرة والإيواء،والمدينة يمانية»[٢].

---

(١) الفائق (٤/٣، ٤).

(٢) الفائق (٤/١٠).

بالتأمل في كلام الزمخشري تبين لنا أنه ذكر كثيرا من التوجيهات التي تصلح في تفسير معنى النَّفَس في الحديث الشريف،ولن تجد علاقةً أكمل صدقا وأعمق إيحاءً بين المعاني المحتملة في بيان هذا الحديث من الذي ذكره.فقد ذكر أن نفس الهواء الذي يرده التنفس إلى الجوف فيبرد من حرارته ويعدلها مستعار لغوث الله ونصرته وتفريجه الكروب،وهي من استعارة المحسوس للمعقول.ويحتمل:أن يكون المشبه به نفس الريح الذي يتنسمه،فيستروح إليه،أو نفس الروضة،يعني طيب روائحها التي يتفرج به.قال الشريف الرضي:«وهذا القول مجاز؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- أراد أن غوث الله ونصره يأتيان من قبل اليمن،يعني القبيلة لا البلدة،والقبيلة هم الأنصار الذين نفس الله بهم خناق الدين،وكشف بأيديهم كرب المؤمنين،ومن كلامهم: أنت في نفس من أمرك،أي:في متسع طويل ومضطرب عريض، ويقول القائل:اللهم نفس عني،أي:فرج كربتي،واكشف همي»[1] فقدذكر الزمخشري المعنى المجازي ووضحه وذكر الآراء

---

(١) المجازات النبوية (ص٤٥).

المحتملة في تفسير «النفس».واستشهد على هذا بحديث آخر يقوى المعنى السابق ويعضده،فقال ومنه قوله ﷺ : «لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن».وهذا الأمر كثير عند جار الله في كتابه الفائق،تجده يذكر المعنى وينص على أنه استعارة،ثم يردفه بمعنى آخر يقويه ويعضده،بما يدل على أنه -رحمه الله- كان يلتمس موضع الشاهد البلاغي في الأحاديث والآثار،ويوضح الألفاظ التي تحتاج إلى توضيح كما سبق.

ثانيا: ذكر الزمخشري في كتابه الفائق الاستعارة التصريحية الأصلية وعبر عنها بلفظ التشبيه أو ما اشتق منه، دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى نوعها،وهو بذلك كان يراعي الأصل في الاستعارة؛لأنها مبنية على التشبيه.من ذلك ما أشار إليه من استعارة الأسل وهو الشوك لكل حديد رهيف من سنان وسيف وسكين يتحصل به الإنسان على قوده من الجاني.

فقال علي- رضي الله عنه-:« لا قود إلا بالأَسَل» الأسل:هو كل حديد رهيف من سنان وسيف وسكين،والأَسَل في الأصل الشوك الطويل فشبه به،المؤسل المحدد،قال مزاحم[1]:

تُبَاري سَديسَاها إذا ما تلمَّجَتْ   شبًا مِثْل إبْزِيم السِّلاحِ المؤسَّلِ

---

(١) الإبزيم: حديدة تكون في طرف حزام السرج يسرج بها ، ينظر الفائق (٤٣/١).

فالأسل:وهو الشوك الطويل مستعار منه،وهو اسم جنس يصدق على كثير،وقد استعير لكل سلاح من حديد يقتاد الإنسان به،وتوحي هذه الاستعارة بأهمية السلاح وتدعو أولى الأمر إلى أن يحذُوه؛تصديقا لقول النبي ﷺ:«وليحد أحدكم شفرته» وإن الأمر في القود يماثل أمر الذبح،وفي هذا ما فيه من رحمة الإسلام،وقد عبر الزمخشري عن هذه الصورة بلفظ التشبيه فقال: «..فشبه به..»

ومن هذا الضرب الذي عبر فيه بلفظ التشبيه عن الاستعارة الأصلية ما ذكره من استعارة الغربان البُقع لخبثاء أهل الشام في قول أبي هريرة –رضي الله عنه-:«يوشك أن يُستَعمل عليكم بُقْعَانُ أهل الشام» «أراد خبثاءهم،فشبههم في خبثهم بالبقع من الغِربان التي هي أخبثها وأقذرها.وقيل:أراد المولدين بين العرب والرُّوميات لجمعهم بين سواد لون الآباء،وبياض لونِ الأمهات»[1].

بالتأمل في كلام الزمخشري يتبين لنا أن الصورة البيانية من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية،وقد شرحها الزمخشري شرحا وافيا،حيث صرح بلفظ التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة وبين

---

(١) الفائق (١/١٢٤).

المستعار منه وهو الغربان البقع وهو محسوس،والمستعار له وهو خبثاء أهل الشام،أو المولدين من العرب والروميات،والجامع بين الطرفين على الرأي الأول التلون والخبث،وعلى الثاني اختلاط البياض بالسواد،والاستعارة توحي بخطورة هذا الصنف وتلونه ومكره وخبثه،وتحذر من الضرر الذي سيحل بالناس إذا استعملوهم عليهم.

ومن هذا الضرب الذي صرح فيه بلفظ التشبيه ما جاء من استعارة الوعول لأشراف الناس ووجوههم في حديث النبي ﷺ:«لا تقوم الساعة حتى يظهرَ الفحش والبخل،ويخونَ الأمين، ويُؤتمن الخائن وتهلك الوُعُولُ وتظْهَرَ التُّحُوتُ،قالوا:يارسول الله وما الوعول؟وما التحوت؟قال:الوعول:وجوه الناس وأشرافهم،والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يُعْلَم بهم»[1].قال الزمخشري:«شبه الأشراف بالوعول لارتفاع مساكنها»[2]،والوعول:جمع وعل -بكسر العين- وهم تيوس الجبل،وضرب المثل بها؛ لأنها تؤوي شغف الجبال.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/٢٥٨) رقم (٦٨٤٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٢٧) عن أبي هريرة.

(٢) الفائق (١/١٤٨)،وينظر فتح الباري(١٣/١٥) .

واضح من كلام الزمخشري أنه -ﷺ شبه الأشراف من الناس بالوعول، وهم تيوس الجبل بجامع الارتفاع والعلو الذي هم فيه،ثم حذف المشبه وأطلق لفظ المشبه به عليه،من استعارة المحسوس للمحسوس.وعبر عن هذه الصور بلفظ"شبه"مراعاة للأصل الذي بنيت عليه الاستعارة،وقد أفادت المبالغة ضياع حال الأمة،وفساد أمرها وهوانها،وما تؤول إليه من ضعف وانحطاط حيث يوسد الأمر إلى غير أهله،وذلك من أمارات الساعة.هذه الصورة البيانية التي وردت في حديثه ﷺ فيها جدة وابتكار حيث جمعت بين شيئين متباعدين،وهي إحدى خصائصه ﷺ البيانية، مما جعل لحديثه رونقا خلابا وجمالا أخاذا؛لأنه أسلوب من أساليب ترسيخ المبادئ،وتأصيل التعاليم، حتى يتعلم الناس،ويقفوا أمامها لتدبرها،فتصل إلى أعماق نفوسهم فتهزها هزا؛لأنها إخبار عما سيقع في المستقبل،وتلك بلاغة عالية تدعونا إلى الإعجاب بها،وهذا من معجزات النبي ﷺ.فإذا انتقلنا إلى صورة استعارة أخرى، وضحها الزمخشري وشرحها في كتابه الفائق وجدناها فيما جاء من استعارة الثمر للنسل والأولاد في قول معاوية -رضي الله عنه-لعمرو بن مسعود حين دخل عليه وقد أسن وطال عمره فقال له:كيف أنت؟وكيف حالك؟فقال:ما تسأل يا أمير المؤمنين عمن ذبُلت بشرته،وقُطعتْ ثمرته،وكثُر منه ما يحب أن يقل...».

١٥١٠

قال الزمخشري:«ثمرته: نسله،شبهه بثمرة الشجرة،كما يقال: هذا فرع فلان وشعبته،ويجوز أن يُكنى بها عن العضو،ويريد انقطاع قدرته على الملامسة، وانقطاع شهوته... وقد أنشد بعضهم: [1]

إلى عُلَيْجِين لم تُقْطَع ثمارُها قد طال ما سجدا للشمس والنار.

وتفسير الزمخشري للثمر بالنسل يكون من قبيل الاستعارة حيث شبه الأبناء بثمر الشجر بجامع الحب وتعلق القلب بهما،ثم حذف المشبه،ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية،ولا يخفى ما في هذه الاستعارة من حسن التصوير،واعتمادها على عناصر من الطبيعة لتصوير حب الآباء للأبناء،حيث إنهم بمثابة الثمرة التي يتعهدها صاحبها بالعناية والحفظ والرعاية حتى تنمو وتصح،وقد أشار الزمخشري إلى هذه الصورة بالفعل "شبه" وصرح بلفظ المستعار منه والمستعار له.

ثم قال الزمخشري:«ويجوز أن يكنى بها عن العضو...»وهو بذلك يصرح بصورة بيانية أخرى محتملة في التعبير بـ «قطعت

---

(١) الشعر لدعبل من ديوانه (٨٨) وقبله:

ما زال عصياننا لله يرد لنا حتى دُفِعنَا إلى يحيى ودينار.

وينظر الفائق (١/١٧٤، ١٧٥).

ثمرته»حيث يصح أن يكون كنايةً عن موصوف وهو العضو، والمقصود انقطاع الشهوة والقدرة على ملامسة النساء،وفيها ما فيها من المبالغة في ضعفه وهرمه وذهاب قوته،وهو معنى قائم. واستشهد على صحة هذا المعنى بما جاء في قول الشاعر السابق بما يدل على قدرة الزمخشري اللغوية،وحسه البلاغي،وبصره بمواقع الكلام.وإلمامه بكثير من كلام العرب شعرا و ونثرا.

ومن هذا الضرب ما جاء في حديث نزول الوحي على النبي ﷺ في بدايته قول ورقة بن نوفل للسيدة خديجة: لئن كان ما تقولين حقا،إنه ليأتيه الناموس الذي كان يأتي موسى».

قالالزمخشري:"الناموس: جبرائيل-عليه السلام-شبه بناموس الملك،وهو خاصته الذي يطلعه على ما يطويه من سرائره عن غيره،وقيل:هو صاحب سر الخير خاصة[1]».

بالتأمل في كلام الزمخشري يتبين لنا أن الناموس هو الشخص الذي يكون موضع سر الملك يطلع على سرائره الخاصة،وإنه استعير لجبريل -عليه السلام- ثم حذف المشبه واستعير لفظ المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وهذه الصورة توضح مدى العلاقة والارتباط الوثيق بين جبريل عليه السلام

---

(١) الفائق (١/١٨٣).

كملك للوحي وبين أنبياء الله ورسله حيث يكون معهم بمثابة أمين سرهم وحافظ خواصهم.وإذا رجعنا إلى أصل كملة الناموس نجدها للمكان الذي يستجن فيه الصائد عن الوحش لئلا تراه فتنفر عنه،ثم استعير هذا للمؤتمن على السر، ثم استعير المؤتمن على السر الذي يطلق عليه ناموسا لجبريل عليه السلام فهو مجاز عن مجاز أو مجاز بمرتبتين، يبرز خاصية العلاقة بين الوحي والأنبياء، فكأن جبريل عليه السلام شُبه بالناموس «لأنه يستخفي بما يؤديه عن الله -سبحانه- إلى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-من أوامر الله التي تقيد القلوب بحبائل الخوف والرجاء، ويجتذبها بعلائق الوعد والإيعاد تشبيها بالصائد الذي يختل[1] صيده حتى يصيبَ غِرَّته ويقتحم غفلَتَه»[2].

ومن هذه الصور التي صرح فيها الزمخشري بلفظ التشبيه ما جاء في قول سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-:«لقد استسقيت بمجاديح السماء» حين خرج إلى الاستسقاء،فصعد المنبر فلم يزد على الاستغفار حتى نزل،فقيل له،إنك لم تستق؟،فقال:لقد استسقيت بمجاديح السماء»[1].

---

(١) يختل: ختل الصيد: تخفي له وخدعه.

[2] المجازات النبوية (ص١٥٨).

[1] أخرجه الزهري في الطبقات الكبرى(٣/ ٣٢٠)عن مطرف عن الشعبي

قال الزمخشري:« المجاديح:هو جمع مجدح :وهو ثلاثة كواكب كأنها أثفية فشبه بالمجدح وهو خشبة لها ثلاثة أعيار يجدح بها الدواء أي: يضرب والقياس:مجادح، فزيدت الياء لإشباع الكسرة، كقولهم:الصياريف والدراهيم،وهو على قياس قول سيبويه: جمع على غير واحد.والمجدح عند العرب من الأنواء التي لا تكاد تخطئ،وإنما جمعه؛لأنه أراده ما شاكله من سائر الأنواء الصادقة والمعنى: أن الاستغفار عندي بمنزلة الاستسقاء بالأنواء الصادقة عندكم،لقوله تعالى: **فقلت استغفروا ﯾ ﯿ** ☐ ☐ **يرسل ﭘ ﭙ ﭚ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ** [٢]يفهم من كلام الزمخشري أنه استعار المجاديح وهي الأنواء الدالة على المطر للاستغفار من استعارة المحسوس للمعقول،فأفادت هذه الصورة تقوية المعنى وتوضيحه؛لأنها أبرزته للمتلقي حتى صار مألوفا ومأنوسا،واعتمدت على عناصر الطبيعة فلائمت حال المخاطبين؛لأنها خاطبتهم بما يعرفونه ولذا وقعت في نفوسهم، وأفادت المبالغة في فضل الاستغفار،وأهميته في مثل تلك المواقف التي يحدث فيها ضيق وجدب وقحط،واستدل الزمخشري على صحة هذا المعنى بما جاء في القرآن الكريم في سورة نوح

---

[٢] الفائق (١/١٩٥) والآيات من سورة نوح (١٠، ١١ ، ١٢)

. فالاستغفار سبب في نزول المطر،وهدم المعاصي؛ «لأن المعاصي الكثيرة لما كانت كالبناء في تراكب أجزائها، واستغلاظ جرابها،كان استغفار النادم وإقلاع التائب،كأنها هدم لذاك البناء من أساسه وكبٌ له على أم رأسه»[1] لذلك عبر عنه بمجاديح السماء، ثم وضح الزمخشري القياس في هذا الجمع وأصله ومفرده،وهو على عادته في هذا الكتاب الزاخر بكثير من كنوز المعرفة، حيث تظهر فيه ثقافته المتعددة الجوانب،فلم يقتصر على شرح المعنى اللغوية في الحديث أو الأثر فحسب، وإنما تراه يناقش مسائل فقهية ويثير قضايا صرفية ونحوية في إيجاز واف بليغ.

ومن هذا الضرب الذي صرح فيه بلفظ التشبيه ما جاء من استعارة الرَّجْرِجَة وهي بقية الماء التي تكون في الحوض كَدِرة حائرة لأراذل الناس السفلة الذين يتبعون كل ناعق في قول الحسن – رحمه الله-:لما خرج يزيد بن المهلب،ونصب رايات سودا،وقال:أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز،قال الحسن في كلام طويل:نصب قصبا علق عليها خرقا،ثم اتبعه رِجْرِجة من الناس رعاع هباء.

---

[1] المجازات النبوية (١٥٩).

قال الزمخشري:«رِجْرِجَة: هي بقية في الحوض كَدِرَة خائِرة تَتَرَجْرَجُ وشبه بها الرُّذَّال من الأتباع في أنهم لا يغنون عن المستتبَع،كما لا تُغْنِي عن الشارب،وشبههم أيضا في أنهم ليسوا بشيء بالهباء،وهو ما سَطع من تحت سنابك الخيل»[1].

وبالتأمل في كلام الزمخشري يتضح لنا أن في كلام الحسن –رحمه الله– استعارتين:الأولى: التي أشرت إليها في كلمة «رجرجة» وهي فاعل الفعل«اتبعه»وقد شرحها صاحب الفائق واستخدم لفظ«شبه» وأشار إلى الوجه الجامع بين الطرفين بقوله: «..في أنهم لا يغنون عن المستتبَع كما لا تُغني هي [يعني الرجرجة] عن الشارب» يعني أن الجامع بينهما هو عدم النفع أو عدم الكفاية من استعارة المحسوس للمحسوس.

والثانية: جاءت في استعارة الهباء وهو الغبار الذي يسطع من تحت سنابك الخيل في الحرب،أو الحركة لهذا الصنف من الناس الذي يتبع كل ناعق ولا ينفعه بشيء، والجامع بين الطرفين هو الحقارة وعدم الاعتداد، فهذا الغبار لا قيمة له ولا ينفع من يقترب منه، بل يغريه ويضله ثم يضره وأشار رحمه الله– إلى هذا المعنى بقوله:«...في أنهم ليسوا بشيء.."وقد أفادت هذه الصورة

---

(١) الفائق (٢/٤٨).

المبالغة في ذم هذا الصنف من الناس،وضعف عقولهم؛ لأنهم يسارعون إلى كل دعوة ويبادرون إليها دون عقل يردهم أو حلم يكبح جماحهم،ثم سرعان ما ينفضون عنها،ويذهبون لغيرها ،وهؤلاء لا نفع من ورائهم؛لأن أصواتهم فارغة من المضمون، وصفاتهم المشينة تشمئز منها النفوس،وتعافها الطباع السليمة،وفي هذه الاستعارة أيضا إيجاز بديع حيث رمزت إلى معان تتسع له النفس بما توحي وتشير.

ومن هذه الصورة ما جاء في حديث حذيفة –رضي الله عنه– لتكونن فيكم أيتها الأمة أربع فتن: الرقطاء والمظلمة»

قال الزمخشري:«دجاجة رقطاء إذا كان فيها لمع من السواد والبياض ، وكذلك الشاة،فأما أن يكون شبهها بالحية الرقطاء،أي:أنها لا تعم كل الخلق،والمظلمة التي لا يهتدي معها»[1].يفهم من كلام الزمخشري أن الفتنة شبهت بالحية الرقطاء الملونة،والتي يختلط بياضها بسوادها، وهذه تصيب بعض الناس دون الآخرين،وهي نوع من البلاء العظيم الذي ينزل ببعضهم،وأخرى سوداء مظلمة تنزل على الناس كلهم،وشبهها بحية سوداء مظلمة قاتلة تعم الجميع مما يجعل التعبير يشع بكثير

---

(١) الفائق (٢/٧٨).

من القلق والرعب والفزع،حيث أبرز الفتنة في صورة محسوسة مجسمة،ثم أضفى عليها ظلالا رائعة من الجمال والحسن،فخيل للسامع أن هذه الفتنة حية قاتلة مميتة تتحرك وتأتي على الناس تقتل وتفتك،وتجعلهم في تقلب مستمر يفر بعضهم من بعض؛لما بينهم من العداوة والمحاربة والفزع؛لجلال خطبها واستفحال أمرها،وقد عبر عنها الزمخشري بلفظ «شبهها».

ومن هذه الصور التي صرح فيها بلفظ التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة ما جاء في قول النبي ﷺ: «إن الله رضي لكم مكارم الأخلاق، وكره لكم سفسافها».

قال الزمخشري: في السفساف: «هو في الأصل ما تهبي من غبار الدقيق إذا نُخِل،ودقاق التراب، ويقال: سفسفت الدقيق، ثم شبه به كل وسخ رديء»[1].

بالتأمل في كلامه –رحمه الله– نجد أن الصورة البيانية جاءت في تشبيه المذموم من الأخلاق والصفات بالسفساف،وهو غبار الدقيق أو التراب الطائر في الهواء،حيث لا قيمة له ولا وزن،بل يعوق الرؤيا ويؤذي الأنف،وكذلك الصفات الذميمة لا نفع فيها ولا خير،بل كلها ضرر وأذى.والصورة من قبيل استعارة المحسوس

---

[1] السابق (٢/١٨٤).

للمعقول،فـأبرزت الفكـرة في مشـهد واضـح يـدعو للعظـة والعبرة؛لاعتمادها على عنصر من عناصر الطبيعة.

ومن هذا الضرب الذي عبر فيه عن الاستعارة بلفظ التشبيه ما جاء في حديث النبيﷺ:«من عض على شبدعه سلم من الآثام» قـال الزمخشـري في بيـان الشـبدع:«علـى لسانه،والشبدع:العقرب،فشبه اللسان بها؛لأنـه يلسـع النـاس. قال:عض على شبدعه الأريبُ فظل لا يُلْحِي ولا يحُوبُ

الآثام:جزاء الإثم،وقال قطرب:هو الإثم، يقال: أثم أثاما»[1].

كشف الزمخشري عن روعة هذه الصورة الاستعارية حيث بين أن اللسان شبه بالشبدع،وهو العقرب بجامع الأذى في كل، وهذا يفيد أن اللسان سبب مصارع الأنام ومعاثر الأقدام،فهو أكثر الأعضاء استجابة لانفعالات الإنسان وأكثرها استخداما في الشر،لذلك كان سببا في وقوع الناس على وجوههم في جهنم، كما جاء في الحديث ومن عض عليه –بمعنى سكت ولم يخض مع الخائضين،ولم يلسع به الناس؛لأن العاض على لسانه لا يتكلم،ومن ثَم ينجو من الآثام والمهالك في الدنيا والآخرة، والصورة من قبيل استعارة المحسوس للمحسوس،وقد أفادت

---

(١) الفائق (٢/٢٢٠).

المبالغة في أهمية اللسان وخطورته في استقامة حياة الناس وآخرتهم،واعتمدت على عنصر من عناصر الطبيعة،وعلى الواقع ومخاطبة الناس بما يعرفونه فأظهرت أهمية اللسان وصورته في إيذائه أشد إيلاما من الإيذاء الحسي والبدني؛لأن أذاه يتناول الغائبين والحاضرين والماضين والموجودين في كل مكان وزمان.

ومن نماذج هذا الضرب من الاستعارة ما جاء في قول النبيﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، أناخت بكم الشُّرَق الجَون أو الشُّرُف».

قال الزمخشري:«الشُّرَق:جمع شارق،يريد فتنا طالعة من قبل المشرق.والشُّرُف:جمع شارف،يريد فتنا متصلة الأوقات متطاولة المدد شُبِّهَت بمسانّ النُّوق الجون:جمع جَوْن،وهو الأسود»[1].

بالتأمل في كلام الزمخشري يتبين لنا أن النبيﷺ قد شبه الفتن التي تحل بهم بمسانّ النوق التي تحل عليهم من جهة المشرق أو تشرف عليهم متصلة الأوقات متطاولة المدد،وهي سود بما يوحي بهلاكهم،وهذا من أبلغ الكلام وأحسنه لفظا في التحذير من الدنيا أو الركون إليها؛لأنها لا تسير على وتيرة واحدة،ولم يأتِ هذا المعنى مجردا فيكون ضعيف التأثير، ولم يقل ﷺ سوف تحل

---

(١) الفائق (٢/٢٣٣، ٢٣٤).

بكم فتن من جهة المشرق أو فتن دائمة متصلة،بل أتى به مقرونا بأمثال من واقع الناس؛ليكون أسرع وصولا إلى قلوبهم، وأعظم تأثيرا فيهم،عن طريق تصوير المعاني المعقولة في قوالب مشاهدة محسوسة؛ليكون أشد في تخويفهم وأكثر إيلاما لنفوسهم،وبذلك يكون قد خاطبهم بما يعرفونه؛لأن صورة المستعار منه مأخوذة من حياة العرب،وطبيعتهم،وحديثهﷺ دعوة للتحذير من الدنيا أو الركون إليها،وسياقه البياني فيه من الجدة والطرافة ما جعل فكرة الحديث تتغلغل في النفس المؤمنة إلى أبعد درجة، مما يؤكد تتابع أفكاره في تسلسل واضح، وكأنها ماء يطرد في نهر مستقيم القاع،تغمره أشعة من الذهب الخالص، فتجعله في قمة البيان البشري الذي لا يضاهيه أساطين البيان، وقد شارك الزمخشري في الكشف عن روائع بلاغتهﷺ كما جاء في كتابه إلى بني نهد:«من محمد رسول الله ﷺ إلى بني نهد بن زيد، السلام على من آمن بالله ورسوله،لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة،ولكم العارض والفريش وذو العنان الركوب...ولا يُمْنَع سرحكم،ولا يُعْضَدُ طلحُكُم،ولا يُحْبَس درُّكم،ما لم تضمروا الإماق،وتأكلوا الرباق ».

قال الزمخشري في معنى الرباق:« جمع رِبْق،وهو الحبل وأراد العهد،شبه ما لزم أعناقهم بالربق في أعناق البُهْم،وشبه نقضه بأكل البهمة ربقها وقطعه»[1].

بالتأمل في كلام الزمخشري يتضح أن في لفظ الرباق استعارة عبر عنها بلفظ «شبه»والمقصود التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة،فقد شبه عليه الصلاة والسلام ما لزم أعناق بني نهد من لوازم الإسلام ومعاقد الإيمان أو لوازم المواثيق والعهود بالرباق الذي يوضع في عنق البُهْم؛ لأنها تصده إذا هَمَّ بالشرود، وتمسكه إذا جاذب إلى النزوع.

وقد صرح الزمخشري بلفظ «شبه» وهي من استعارة المحسوس للمعقول،ومن ثم عدها الذوق في أعلى درجات البلاغة، ومراتب البيان؛لأنها قربت المعنى ووضحته،وخاطبت العرب بما يعرفونه،وناسبت أسلوبهم وكلامهم،ورسمت بذلك صورة واضحة لأهمية الالتزام بالعهود والمواثيق،ويؤكد ذلك ما أشار إليه الزمخشري من إيثارة ﷺ التعبير بالأكل والمراد نقض العهد، وفي ذلك استعارة أخرى عبر عنها الزمخشري بلفظ شبه أيضا، حيث شبه نقض العهد بالأكل ثم حذف المشبه، ثم استعار لفظ المشبه

---

(١) الفائق (٢/٢٨٢).

به للمشبه، ثم اشتق من الأكل بمعنى نقض العهد تأكلوا بمعنى تنقضوا العهد، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وهذا التصوير يدل على أن الوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق يعد الوسيلة الوحيدة للنجاة في الدنيا والآخرة،وقد كانت الاستعارة وسيلة رائعة من وسائل تقريب المعنى وإبرازه بشكل ملموس؛ لتهيئة النفوس،وتنبيه العقول،وإيقاظ القلوب،ومن ثم كان شرح الزمخشري لمعنى الرباق دليلا قاطعا على أنه ﷺ فُطِر على معرفة عناصر التأثير في البيان وأوجه الجمال في اللسان، وخاصة عندما يخاطب قوما يدعوهم إلى الإيمان والإسلام، وكاشفا عن الطابع العام لبيانه ﷺ وهو الصدق الموجز دون فضول.

ومن أمثلة هذا النوع ما ورد في الفائق أنه دفن بعض الخلفاء بعرين مكة.

قال الزمخشري: «أي: بفنائها، شبه لعزّه ومَنَعَتِه بعرين الأسد، وهو غابته»[1] فقد استعير العرين وهو مكان الأسد للفناء الذي دفن فيه بعض الخلفاء،وأشار الزمخشري إلى الوجه الجامع بين الطرفين وهو العزة والمنعة،وصرح في هذه الاستعارة بلفظ «شبه».

---

[1] الفائق (٢/٤٢٢).

ومنها ما جاء في الحديث:«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه حجابه النور...».

قال الزمخشري: «النور: الآيات البينات التي نصبها أعلاما لتشهد عليه وتُطَرِّقُ إلى معرفته والاعتراف به،شبهت بالنور في إنارتها وهدايتها،ولما كان من عادة الملوك أن تضرب بين أيديهم حُجُب، إذا رآها الراءون علموا أنها هي التي يحتجبون وراءها، فاستدلوا بها على مكانهم – قيل: حجابه النور؛ أي: الذي يستدل به عليه كما يُستدل بالحجاب على الملك المحتجب»[٢].

فقد وضح الزمخشري أنه ﷺ استعار النور للآيات البينات التي نصبها أعلاما لتشهد عليه،وتطرّق إلى معرفته والاعتراف به وبوحدانيته بجامع الهداية والإنارة.وهذه الاستعارة مفهومة من تناوله لمعنى النور في الحديث،واستشهد على صحة هذه الصورة البيانية بما يفعله الملوك من ضرب الحجُب،لتكون علامات وآيات تدل على وجوههم ــ ولله المثل الأعلى ــ وشرحها وعبر عنها بلفظ: " شبهت بالنور في إنارتها وهدايتها "فنص على وجه الشبه الجامع بين الطرفين.وهذا فهم يؤيده الذوق الرفيع في إدراك المعاني،والكشف عن جمال التعبير؛لأن فيه بلاغة الاستشهاد

بالصورة التي تمثل الأشياء بخصائصها وتضع المعاني في صورة المحسات لتصح،فيدركها المتلقي من غير تعب أو مشقة،ومن ثم استشهد بما يفعله الملوك في الأرض، وهذا يدل على عمق فكره ورفاهيته.

ومنها ما جاء في قوله ﷺ :«ويل لأقماع القول ويل للمصرين».

قال الزمخشري:«شبه أسماع الذين لا ينجع فيهم الوعظ،ولا يعملون به بالأقماع التي لا تعي ما تقول مما يفرَّغ،وفي المقامات «كم من نصيحة نصحت بها فلم يوجد لك قلبٌ واع،ولا سمع راع،كأن أذنك بعض الأقماع،وليست من جنس الأسماع»[1].الصورة البيانية الواردة في الحديث فيها جدة وابتكار مما يجعلها تتغلغل في نفس المتلقي إلى أبعد درجة،حيث شبه أسماع الذين يستمعون القول ولا يعونه أو يحفظونه ولا يعملون به بالأقماع التي لا يستقر فيها شيء مما يُفَرَّغ فيها فكأنه يمر عليها مجازا،كما يمر الشراب في الأقماع،وهي من استعارة المحسوس للمحسوس،بلغت بجدتها وطرافتها قمة البيان ،وقد شرحها الزمخشري وبين طرفيها وعبر بلفظ «شبه» مما يدل على حسه البلاغي وذوقه الراقي، وإدراكه الجيد لمرامى الكلام ووجاهته.قال

---

(١) الفائق (٣/٢٢٥).

الشريف الرضي:«وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى؛لأن الآذان هي الطرق التي يوصل منها إلى الصدور،والأنقاب التي يدخل منها على القلوب، فهي أبواب موصلة، وطرق مبلغة»[١].«وقد أفادت الصورة هنا ذم هذا الصنف، وقدح لهؤلاء الناس الذين يستمعون أطيب القول ولا يتبعون شيئا منه، وفيها كذلك تنفير من هذه الصفة المرذولة وزجر عنها»[٢].

ثالثا: أحيانا يعبر الزمخشري عن الاستعارة الأصلية بلفظ المثل أو مثلا أو التمثيل وهي ليست مثلا في اصطلاح البلاغيين،«وهو يتساهل في استعمال المصطلحات العلمية التي حدد مدلولها، ومرجع هذا إلى ميله للمعنى اللغوي الذي يعدل به كثيرا عن الاصطلاح المحدد»[٣]،هذا فضلا على أنه كان ينقل عن علماء غريب الحديث السابقين ممن لم تستقر عندهم المصطلحات البلاغية يقول في قوله ﷺ في الزكاة:«لا خلاط ولا رواط»: «الخلاط: أن يهالط صاحبُ الثمانين صاحب الأربعين في الغنم،وفيهما شاتان لتؤخذ واحدة والوراط:خداع المتصدِّق بأن يكون له أربعون شاة فيعطي صاحبه نصفها لئلا يأخذ المصدِّق

---

(١) المجازات النبوية (ص٣١).

(٢) الاستعارة في لسان العرب (ص٣٣).

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د محمد أبو موسى (ص٥١٦).

شيئا، مأخوذ من الورطة،وهي في الأصل الهوّة الغامضة، فجعلت مثلا لكل خطة وإبطاء عشوة،وقيل:هو تغييبها في هُوّة أو حُفَر لئلا يعثر عليها المصدق،وقيل:هو أن يزعم عند رجل صدقة وليست عنده فيورّطه[1].

بالتأمل في كلامه -رحمه الله- يتبين لنا أن الوراط من الورطة وهي الهوة العميقة في الأرض مستعار منه،وقد استعيرت للناس إذا وقعوا في بلية يصعب الخروج منها،بجامع الشدة والخداع في كل،وعبر الزمخشري عنها بلفظ«مثلا» وهي ليست تمثيلا بالمعنى الاصطلاحي الذي حدده المتأخرون،وإنما هي من الاستعارة في المفرد وهي أصليه.وقد توسع الزمخشري في تفسير «الوراط» ذاكرا المعاني التي يحتملها اللفظ،مما يدل على أنه كان يتلمس الإحاطة بالمعاني التي يحتملها السياق،وبخاصة إذا كان موضع التأويل المراد بلاغيا.

ومن هذا الضرب ما ذكره من استعارة الجلد الذي لم يدبغ لجسد حافظ القرآن في قول النبي ﷺ:«لو جعل القرآن في إهاب، ثم ألقي في النار ما احترق»[2].

---

(١) الفائق (١/١٦).

(٢) أخرجه الدرامي في سننه ك فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن ١٥٢٧

قال الزمخشري:«الإهاب هو الجلد؛ قيل:لأنه أُهْبَة للحي،وبناء للحماية له على جسده،كما قيل له المِسْك؛ لإمساكه ما وراءه؛ وهذا كلام قد سُلك به طريق التمثيل، والمراد أن حملة القرآن، والعاملين به مَوْقُون من النار»[1].واضح من كلام الزمخشري أنه قد جعل جسد حافظ القرآن كالإهاب،ثم حذف المشبه،ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية،وقد أشار إليها بلفظ «التمثيل» وليست تمثيلا في اصطلاح المتأخرين،وإنما هو على التوسع في إطلاق المصطلحات،وقد شرح لفظ الإهاب بما يدل على سعة تتبعه للألفاظ التي تكون في الصور البلاغية،والاستعارة من قبيل استعارة المحسوس للمحسوس، وقد أفادت عظم منزلة حافظ القرآن وبينت فضله، لدرجة أنه لا تؤثر فيه النار؛ لما فيه من ينابيع الحكمة وأنهار الرحمة التي تخمد تلك النار وتقضي عليها،واعتمدت على حسن التصوير،وبراعة التعبير الذي يعد سمة من سمات البيان النبوي،والذي يلفت الأنظار إلى فضل كتاب الله وقيمته الغالية في حياة المسلمين، مما يدفع السامعين

---

(١) الفائق (٦٧/١) وينظر شرح السنة (٤٣٧/٤) للبغوي ت/ شعيب الأرنؤوط ، ومحمد زهير، والكاشف عن حقائق السنة (١٦٦٢/٥) ١٥٢٨ ومرقاة المفاتيح (٣٦٠/٤) وغريب الحديث لابن الجوزي (٤٨/١).

أو القارئين إلى البحث عن الطرق الموصلة لفهمه وحفظه والعمل بمقتضاه؛لأن في ذلك نجاةً من النار،والاستعارة هنا ملوحة من وجه آخر إلى أنه لا أمان لمن يحفظ القرآن ثم ينساه ولا يلتزم بتعاليمه وأوامره.

ومن هذا الضرب ما جاء في قول ابن الأشعث عندما كتب إلى الحجاج: «سأحملك على صَعْب حِدْباء حدبار حدب ينج ظهرها».

قال الزمخشري:«الحدبار:التي بدا عظم ظهرها ونشزت خراقيفها هزالاقال الكميت:

ردهن الهزال حدبا حدابير وطيّ الإكام بعدَ الإكام

ونجيح القرحة :سيلانها قيحًا قال:

فإن تك قرحة خبُثت ونجَّتْ فإن الله يشفي من يشاء

ضرب ذلك مثلا للأمر الصعب والخطة الشديدة»[1].

يفهم من كلام الزمخشري أنه استعار الدابة التي بدا عظم ظهرها وهو يسيل قيحا للأمر الصعب الشديد،ثم حذف المستعار له واستعار لفظ المستعار منه على سبيل الاستعارة التصريحية

(١) الفائق (١/٢٦٩).

الأصلية،وقد عبر عنها بلفظ«مثلا»واستشهد على المعنى المراد بما جاء في شعر العرب.

ومثلها ما جاء في كتاب الفائق في شرح «شر الرعاء الحطمة» الحطمة: هو الذي يعنف بالإبل في السَّوْق والإيراد والإصدار فيحطمها؛ ضربه مثلا لوالي السوء»[1].

وهو بذلك يوضح الطريق البياني التي استخدم في التعبير عن الوالي السيئ حيث استعير الذي يعنف بالإبل في سوقها وإيرادها الماء وإصدارها عنه بالوالي السيئ الذي يمارس العنف والقسوة مع رغبته بجامع القسوة والجهل في كل؛وقد عبر عن هذه الصورة بلفظ مثلا،ويحتمل أن تكون من قبيل التمثيلية ويكون تعبيره بالمثل في حقها صحيحا حيث شبهت حالة الوالي الذي يمارس العنف والقسوة والظلم مع رعيته بحالة الراعي الذي يعنف إبله في سيرها وإيرادها الماء وإصدارها عنه،بجامع الهيئة الحاصلة من قسوة الراعي برعيته.ثم حذف التركيب الدال على المشبه،واستعار له التركيب الدال على المشبه به على سبيل الاستعارة التمثيلية،وقد أفادت المبالغة في ذم القسوة والظلم والجهل حيث يؤدي إلىالهلاك.

---

(١) الفائق (٢٩٢/١).

ومن هذا الضرب ما جاء في قول علي رضي الله عنه في ذكر دخول الناس على رسول الله ﷺ :«يدخلون رُوَّادًا ولا يتفرقون إلا عن ذَوَاق ويخرجون أَدِلَّة».

قال الزمخشري:«روادا:أي طلابا للمنافع في دينهم ودنياهم،والذواق:اسم ما يُذَاق،يقال:ما ذُقْتُ ذَوَاقا،وهو مَثَل لما ينالون عنده من الخير،وأدلة:أي علماء يدُلُّون الناس على ما علِمُوه»[1].فُهم من كلام الزمخشري أن الذواق في قول سيدنا عليٍّ مستعار لما يفيد الإنسان ويغذي روحه من الأمور المعنوية كالعلم والأدب،فاستعير فيها المحسوس للمعقول؛لتقريب المعنى من النفس،وقد أطلق على هذه الاستعارة كلمة«مثل»وهي ليست مثلا عند علماء البلاغة.

ومنها ما جاء في حديث النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري عندما سمعه يقرأ القرآن:«لقد أوتي هذا من مزامير آل داود...».

قال الزمخشري:«ضرب المزامير مثلا لحسن صوت داود عليه السلام وحلاوة نغمته كأن في حلقه مزامير يزمر بها»[2].

---

(١) الفائق (٢/٩٠).

(٢) الفائق (٢/١٢٣).

بالتأمل في كلام الزمخشري يتبين لنا أنه كشف عن المعنى المجازي في الحديث وشرحه بما يدل على ذوقه العالي وبلاغته الراقية حيث أشار إلى أن النبيﷺ استعار المزمار لصوت سيدنا داود ثم حذف المشبه وأطلق لفظ المشبه به عليه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية والجامع بين الطرفين حلاوة النغمة وروعة الصوت،وهي من قبيل استعارة المحسوس للمحسوس؛لأن كلا الطرفين يدرك بحاسة السمع، وقد عبر عنها الزمخشري بلفظ «مثلا»وهي ليست مثلا في اصطلاح البلاغين،وإنما كان ذلك منه على التوسع،لكنه وضح الصورة وبينها بقوله:«...كأن في حلقه مزامير يزمر بها».

قال ابن حجر:«والمراد بالمزمار الصوت الحسن،وأصله الآلة أطلق اسمه على الصوت للمشابهة»[1]والمشابهة هي علاقة الاستعارة ،والمقصود بالمدح أبو موسى الأشعري.

وقد أفادت هذه الصورة المبالغة في حسن صوته-رضي الله عنه- وحثت على استحباب تحسين الصوت، والثناء على صاحب الصوت الجميل في ترتيل آيات القرآن.لذلك آثر النبي ﷺ التعبير

---

(١) فتح الباري (٨/٧١٢)، وينظر شرح الكرماني (١٩/٤٤) وإرشاد الساري للقسطلاني (٧/٤١٨).

بها، فزادت المعنى إيضاحا وتأثيرا؛ كي يتأصل الاستمتاع بالقرآن في النفوس تأصيلا تملية الروعة البيانية.

ومن هذا الضرب ما جاء في قول النبي ﷺ:«لا تسضيئوا بنار المشركين».

قال الزمخشري:«ضرب الاستضاءة بنارهم مثلا لاستشارتهم في الأمور واستطلاع آرائهم»[1].يفهم من كلام الزمخشري أن النبي ﷺ قد بلغ الدرجة العالية في الإيجاز والبلاغة حتى تربعت بلاغته على قمة البيان البشري،حيث خاطب الناس بما يعرفونه ويألفونه في حياتهم.فقد بين أن النبيﷺ استعار النار والضوء للرأي والمشورة،ثم حذف المشبه،وأطلق نقط به المشبه به على سبيل المثال الاستعارة التصريحية الأصلية.وقد أطلق عليها صاحب الفائق «مثلا»،وهو لا يقصد المثل عند المتأخرين،بل المعنى اللغوي للمشابهة،وهي من قبيل استعارة المحسوس للمعقول فالمستعار منه وهو النار والضوء محسوس، والمستعار له وهو الرأي والمشورة معقول، فجاءت هذه الصورة الرائعة بهذا الأسلوب؛ لتوضح المعاني الخاصة بالتعامل مع الكفار- ونهت المسلمين عن استشارتهم أو أخذ آرائهم في تصريف أمورهم- توضيحا

---

(١) الفائق (٢/٣٤٩).

مؤثرا،فأضافت إلى الحقيقة الفكرية صورة جعلتها تختال أمام العيون، حيث صورت الآراء بالنار أو الضوء الساطع، وتزداد هذه الصورة تأثيرا حين يُقرن المتلقي صورة المستعار له بصورة المستعار منه فيزداد انفعالا بما تلقي؛ لأن مثل هذا الأسلوب الذي يقرب المعنى في صورة المشهد المحسوس إنما يلمس شغاف القلوب مسًّاحيًّا، فما أبدع هذه الصورة التي امتازت بانتقاء ألفاظها، وراعت حسن التشبيه الذي بنيت عليه، وانتزعت من عناصر الطبيعة، حيث كان العرب في حياتهم يستضيئون بالنار في حلهم ورحلاتهم، «والمقصود فيه ــ والله أعلم ــ لا تعتمدوا على آرائهم، ولا تركنوا إليهم، ثم انظر إلى استعمال كلمة النار بدل النور، وما تحمله من دقة وموضوعية وجمال صورة، وهل النار إلا محرقة أكثر من كونها صالحة للإضاءة»[1].

ومن هذا النوع ما جاء في قول علي –رضي الله عنه– يوم الشورى: «لنا حقٌّ إن نُعْطَه نأْخذه، وإن نُمْنَعْهُ نركب أعجاز الإبل، وإن طال السُّرَى ».

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان صـ٢٢٤ وينظر التصوير الفني في= = الحديث النبوي لمحمد الصباغ (صـ٦٠) وأساليب البيان في الصورة القرآنية ١٥٣٤ (صـ٣٠٩) د/ محمد إبراهيم شادي.

قال الزمخشري:"هذا مثل لركوبه الذل والمشقة، وصبره عليه، وإن تطاول ذلك، وأصله أن الراكب إذا اعروْرَى البعيرُ ركب عجزه من أصل السنام، فلا يطمئن ويحتمل المشقة.

وأراد بركوب أعجاز الإبل كونه رِدْفًا تابعًا ، وأنه يصبر على ذلك وإن تطاول به، ويجوز أن يريد: وإن نُمْنَعه نبذل الجهد في طلبه؛ فِعْل مَنْ يضرب في ابتغاء طلبته أكبادَ الإبل، ولا يبالي باحتمال طول السُّرى»[1].

بالتأمل في كلام الزمخشري –رحمه الله- يتبين لنا أن ركوب أعجاز الإبل مستعار منه، وقد استعير لركوب الذل والمشقة والصبر عليهما، وهذا يعني أنه –عليه السلام- سوف يتحمل كل المشاق والصعاب التي تواجهه وهو يسعى لأخذ حقه، وقد أشار إلى هذا الزمخشري بقوله: «هذا مثل لركوب الذل والمشقة، وصبره عليه...» وصرح بلفظ المثل،ويصح أن يكون التعبير بركوب أعجاز الإبل كناية عن صفة الشدة أو المشقة ويكون تعبيره بالمثل من قبيل التساهل أو التوسع في استعمال المصطلحات،فهي لم تستقر بعد .

---

(١) الفائق (٢/٣٩٧، ٣٩٨).

ومن هذا الضرب ما جاء في قول عمرو بن العاص –رضي الله تعالى عنه– حين دخل عليه معاوية وهو عاتب: «...أما والله لقد تلافيتُ أمرَك وهو أشد انْفِضَاحًا من حُقِّ الكَهْدَل، فما زلتُ أرمُّه بِوَذَائِله، وأصِلُهُ بوَصَائِله».

قال الزمخشري:«قالوا الوذائل : سبائك الفضة، جمع وذيلة،والوصائل: ثياب حُمْر مخططة يُجاء بها من اليمن؛ الواحدة وصيلة، يريد أنه زيَّنه وحسَّنه.وعندي: أنه أراد بالوذائل جمع وذيلة، وهي المرآة، بلغة هذيل قال:

وبياضُ وجهِك لم تَحُل أسرارُه مثل الوَذِيلة أو كَشَنْفِ الأنْصُر

مثل بها آراءه التي كانت لمعاوية أشباه المرآتي،يرى فيها وجوه صلاح أمره واستقامة ملكه»[1].تعبير سيدنا معاوية بالوذائل من قبيل الاستعارة الأصلية التصريحية، حيث ذكر الزمخشري أنها تعني سبائك الفضة، أو المرايا جمع مرآه،يعني أنه شبه آراءه بالسبائك من الفضة أو بالمرايا التي يرى فيها الناظر صلاح الحال وانتظامه،ثم رجح الثاني واستدل على صحة هذا المعنى بما جاء في شعر العرب: مما يدل على إلمامه الواسع بأساليب العرب وتوجيهاتهم وقد عبر عن هذه الصورة بلفظ «مثل» بمعنى شبه، ثم

---

(١) الفائق (٢/٤٤١).

أشار رحمه الله- إلى الوجه الجامع بين الطرفين بقوله: يرى فيها وجوه صلاح أمره واستقامة ملكه».

« وهي من قبيل استعارة المحسوس للمعقول مما أكسب المعنى القوة والوضوح، وبهذا الأسلوب وصل سيدنا عمرو إلى هدفه من ذكر فضله ورجاحة عقله، ومساهمته في استقامة ملك سيدنا معاوية، حيث صور آراءه له بالمرايا التي يرى الناظر فيها صلاح الحال، واستقامة الأمر»[1].

ومن هذا ما ذكره من استعارة الوعثاء وهي ما يشتد فيه السير ورسوخ الأقدام للشدة والمشقة فقال في قوله ﷺ في دعاء السفر: «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر»

يقال: «رمل أوْعث، ورملة وعثاء لما يشتد فيه السير لِلِينِهِ ورسوخ الأقدام فيه، ثم قيل للشدة والمشقة وعثاء على التمثيل»[2].

يفهم من كلام الزمخشري أن الوعثاء في الأصل موضوعة لكل طريق ملتوٍ وصعب يَشُق على الساري المشي فيه،ثم جعل النبي ﷺالسفر وتكاليفه ومشقته بمنزلة الوعثاء التي تتعب الساري فيها؛وتصيبه بالنَّصَب والمشقة،على سبيل ا التصريحية الأصلية.

---

(١) مباحث البيان في كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر (صـ٢٧٩) رسالة دكتوراه في كلية الدراسات والعربية للبنين بالقاهرة.

(٢) الفائق (٤/٧١).

رابعا:أحيانا يعرض الزمخشري الاستعارة التصريحية الأصلية، ولكنه لا يفصل القول فيها، وهو بذلك يشير إلى استعارة المصادر فيما يكون الفعل فيه مجازا من غير تصريح بلفظ الاستعارة أو التشبيه أو التمثيل،ولكنها تفهم من خلال شرحه للمعنى المراد أو الغاية المرجوة من التعبير.من ذلك ما جاء في قول عمرو بن ميمون – رحمه الله-: «إياكم وهذه الزعانيف الذين رغبوا عن الناس وفارقوا الجماعة».

قال الزمخشري:"قال المبرد:الزعانيف: أصلها أجنحة السَّمك، فقيل للأدعياء: زعانف؛ لأنهم التصقوا بالصميم،كما التصقت تلك الأجنحة بعظم السمك،وأنشد لأوس بن حجر:

فما زال يَفْرِي البيدَ حتى كأنما قَوَائِمُه من جَانِبَيْه الزعانِفُ

والواحدة زِعْنِفَة، والياء في الزعانيف إشباع كسرة، وأكثر ما يجيء في الشعر»[1].

بالتأمل في كلام الزمخشري الذي نسبه إلى المبرد يتبين لنا أن التعبير عن فئة معينة من الناس بالزعانف أو الزعانيف، إنما هو من قبيل الاستعارة حيث شبه من خرج عن الجماعة وشذ عنهم وفارقهم بأجنحة السمك وأطرافه، ، وقيل:الزعانف أطراف الجلد

---

(١) الفائق (٢/١١١).

من الأدم[1]، ثم حذف المشبه واستعار المشبه به له على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية،من استعارة المحسوس للمحسوس ، وقد أفادت المبالغة في ذم الفرقة والاختلاف، ودعت إلى الاتحاد والائتلاف؛ لأن دخول الإنسان في الجماعة يمنعه من الارتكاس في المحظورات أو الوقوع في الضلالات ، فإذا فارق الجماعة وشذ عنهم كان معرضا للهلاك كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم:"إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية" وقد أشار العلامة الزمخشري إلى ضعفهم وتعرضهم للوقوع في الضلال بقوله :.. لأنهم التصقوا بالصميم" ،والصميم: هو العضو الذي هو قوام البدن،يعني أن الصميم قوام المجتمع وهم ليسوا منه ،وبذلك يكونون خارجين عنه، وهو موطن ضعفهم كما قال الشاعر :

أيا زرع عد للفجر إنك ملصق وليس صميم القوم مثل الزعانف

ومن نماذج هذه الصورة ما ذكره في حديث النبي ﷺ لما رجز له البراء بن مالك في بعض أسفاره،فلما قارب النساء،قال رسول الله ﷺ:«إياكم والقوارير».

قال:«صيرهن قوارير لضعف عزائمهن، وكره أن يسمعن حداءة خيفة صبوتهن»[1].ثم استدل على صحة المعنى الذي ذكره في

---

[1] غريب الحديث لابن الجوزي (١/٤٣٦)

(١) الفائق (٣/١٧٥).

تفسيره القوارير،و أن الغرض منه التحذير الوارد في قول النبي ﷺ- بما جاء عن سليمان بن عبد الملك أنه سمع مغنيا في معسكره، فطلبه فاستعاده فاحتفل في الغناء،وكان سليمان مفرط الغيرة، فقال لأصحابه:والله لكأنها جرجرة الفحل في الشوْل، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صبت، ثم أمر به فخصي، وقال: أما علمت أن الغناء رُقْية الزنا»[٢]. يفهم من كلام الزمخشري: "صيرهن قوارير لضعف غزائمهن" أنه ﷺ شبه النساء بالقوارير من الزجاج على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية؛ لأنه صرح بلفظ المشبه به،وقد أشار الزمخشري إلى الوجه الجامع بين الطرفين بقوله:«لضعف عزائمهن» يعني:

يسرع إليها الكسر أو التأثر بهذا الفعل،لذلك وقع اختلاف في تحديد الوجه المراد من الاستعارة.

قال ابن حجر –رحمه الله-:«والنساء يشبهن بالقوارير في الرقة واللطافة وضعف البنية..،وقيل:شبهن بالقوارير بسرعة انقلابهن وقلة دوامهن على الوفاء،كالقوارير يسرع إليها الكسر ولا تقبل الجبر، و[قيل: الحادي كان أنجشة وليس البراء بن مالك].

---

[٢] الفائق (٣/١٧٥).

قال الخطابي: كان أنجشة أسود،وكان في سوقه عنف فأمره أن يرفق بالمطايا،وقيل: كان حسن الصوت بالحداء،فكره أن تسمع النساء الحداء؛فإن حسن الصوت يحرك من النفوس، فشبه ضعف عزائمهن وسرعة تأثير الصوت فيهن بالقوارير في سرعة الكسر إليها»[1].

وبالتأمل في هذا الكلام يتبين لنا أن الجامع بين المستعار منه والمستعار له هو إما الخوف من ميلهن إلى غير المباح من سماع الغناء وأشعار الغزل ؛ لضعف عزائمهن، وإما يكون ضعف أجسامهن الرقيقة،وما يترتب على ذلك من الكسر لشدة الحركة والاضطراب ، لأن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واشتدت فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك. وقد رجح الشريف الرضي الأول فقال ــ بعد ما ذكر الحديث-: «وهذه استعارة عجيبة؛ لأنه ﷺ شبه النساء في ضعف النحائر ووهن الغرائز بالقوارير الرقيقة التي يوهنها الخفيف، ويصدعها اللطيف، فنهى عن أن يسمعهن ذلك الحادي ما يحرك موضع الصبوة، وينقص معاقد العفة»[2].ولا مانع من تعدد وجه الشبه إذا كان

---

(١) فتح الباري (١٥٦١٠ وينظر غريب الحديث للخطابي (٣/٤٥)، ومشارق الأنوار على صحاح= =الآثار للقاضي عياض (٢/١٧٧).

(١) المجازات النبوية (ص٣٥).

السياق وقرائن الأحوال تقبله، وأرى –والله أعلم – أن الجامع بين الطرفين متعدد وهو الرقة واللطافة وضعف البنية.

قال الرافعي رحمه الله: "وجه المعنى ظاهر وكأنهن نور وصفاء ورقة ثم سلامة، قلَّما تسلم إلا بشدة الصيانة والحفظ والمراعاة»[1]. كما يحتمل الحديث أن يكون من قبيل الكناية، ويكون النبي ﷺ كنى عن النساء بالقوارير، وهي كناية مفردة عن موصوف، وعدها صاحب المثل السائر كناية لطيفة فقال: «ومن ذلك أيضا قول النبي ﷺ : «رويدك سوقك بالقوارير» يريد بذلك النساء، فكنى عنهن بالقوارير....وهذه كناية لطيفة»[2].

وقد صرح بذلك ابن رشيق في العمدة وابن حجر في الفتح وصاحب اللسان.ووافق العلوي هذا الرأي وبيَّن السر في جعلها كناية فقال:«وإنما كنى عنهن بالقوارير لأمور ثلاثة أما أولا: فلما هُن عليه من حفظ الأجنة،والوعاء كالقارورة تحفظ ما فيها.وأما ثانيا: فلاختصاصهن بالصفاء والصقالة والحسن والنضارة، وأما ثالثا: فلما فيهن من الرقة،والمسارعة إلى التغير والانثلام كما يتسارع الكسر إلى القارورة لرقتها،وهذا الوجه الذي يومئ إليه

---

(٢) تاريخ آداب العرب (٢/٣٥١).

(٤)العمدة في صناعةالشعرلابن رشيق ١/٢٦٨وفتح الباري ١٠/٥٦١= = ولسان العرب (قور).

كلام رسول اللهﷺ حيث قال له، رفقا بالقوارير».[1]وعلى هذا الوجه يجوز جعل الحديث من قبيل الاستعارة،أو من الكناية، وإن كانت عبارة الزمخشري ترجح الاستعارة،ومهما يكن من شيء فإن الصورة البيانية في الحديث الشريف هنا قد أفادت المبالغة في الاهتمام بالنساء، والحفاظ عليهن وتربيتهن ورعايتهن في حالتي الإقامة والسفر.حيث إن هذا الحديث «يعد مظهرا من مظاهر اهتمام الإسلام بالمرأة وتكريمه لها، وهو شاهد على رحمة الرسول ﷺ ورفقه بالنساء، ولا عجب في ذلك، فهو القائل:«استوصوا بالنساء خيرا»[(١)].«وهذه هي البلاغة النبوية التي تجمع بين الإيجاز العجيب والمعنى الغزير، فكل كلمة ينطق بها النبي الحبيب يكون لها دلالة خاصة، وإيحاء عظيم وتصوير قوي لخلجات النفوس، وخطرات الضمائر، حيث تكون مصورة لمعناها أكمل تصوير، وهو هنا –عليه الصلاة والسلام- يصور فكرة الرجال عن النساء وحبهم لهن الذي هو جبلة في النفس متمكنة لا تتغير أو تتزحزح مع مرور الزمن» [(٢)].

---

[1] ينظر الطراز(١/٤٠٧)

[1] الصورة البيانية (صـ١٧٣) د/ محمد أحمد عثمان ضمر.

[٢] مباحث البيان في كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر (صـ٢٦٥، ٢٦٦) د/ أحمد أحمد شكم رسالة دكتوراه.

ثانيا: الاستعارة التبعية:

الاستعارة التبعية هي القسم الثاني للاستعارة التصريحية، وهي تقع في الأفعال والمشتقات، ولكنها لا تجري فيها إلا بعد جريانها في مصادرها»[٣]. ولذلك سميت تبعية؛ لأنها تابعة في الإجراء للأصلية.

قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني: «...وإذ قد تقرر أمر الاسم في كون استعارته على هذين القسمين، فمن حقنا أن ننظر في الفعل هل يحتمل هذا الانقسام، والذي يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شيء، كما يتصور في الاسم، ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذي اشتق منه للشيء في الزمان الذي تدل على صيغته عليه، فإذا قلت: «ضرب زيد" أثبت الضرب لزيد في زمان ماضي»[١].

وقد تعرض الزمخشري في كتابه الفائق في غريب الحديث لهذا النوع من الاستعارة ولكنه لم يصرح بأنها تبعية، كما لم يصرح بلفظ الأصلية، ولكن كتابه ملئ بالشواهد التي تعد من قبيل

---

[٣] البلاغة العالية الشيخ عبد المتعال الصعيدي (علم البيان صـ٩٦).

[١] أسرار البلاغة (صـ٥١).

التبعية، وكانت إشاراته إليها مجملة إلا قليلا، ولكنها توحي بأنه يقصد مسمى الاستعارة التبعية، ولم يضف البلاغيون من بعده إلا أن وضعوا لها إطارا ومصطلحا.

وإشاراته في كتاب الفائق تكشف أيضا عن حسه البلاغي وذوقه الراقي وقيمة هذا اللون البلاغي في التصوير والتوجيه والتهذيب،وقد تناولها كما تناول الاستعارة الأصلية، فمرة يصرح بلفظ الاستعارة في شرحه للمعنى المجازي، ومرة ثانية يعبر بلفظ التشبيه، وهو بذلك يشير إلى أنها مبنية عليه، ومرة ثالثة يصرح بلفظ المثل أو التمثيل وهو يريد المعنى اللغوي لا الاصطلاحي، ومرة أخرى يشرحها ويوضحها دون أن يصرح بأي من الألفاظ السابقة، ولكنه يشرحها بما يدل على أنها استعارة. ومما صرح فيه بلفظ الاستعارة ما ذكره من استعارة الأيْض وهو العود إلى الشيء لمعنى الصيرورة في حديث النبي ﷺ : في حديث كسوف الشمس على عهده، وذلك حين ارتفعت الشمس قيد رمحين أو ثلاثة: اسودت حتي آضَتْ كأنها تَنُّومة.

أي: صارت، قال زهير:

قَطَعَت إذا ما الآلُ آضَ كأنه سيوف تَنحَّى تارةً ثم تَلْتَقِي

وأصل الأَيْض: العود إلى الشيئ، تقول: فعل ذلك أيضا إذا فعله مُعَاوِدًا؛ فاستعير لمعنى الصيرورة؛ لالتقائهما في معنى الانتقال،

تقول: صار الفقير غنيا وعاد غنيا، ومثله استعارتهم النسيان للترك والرجاء للخوف، لما في النسيان من معنى الترك، وفي الرجاء من معنى التوقع، وباب الاستعارة أوسع من أن يحاط به، والتَّنُّوم: نبت فيه سواد»[1].

يفهم من شرح الزمخشري أن قوله:«آضت» استعارة تبعية وهو فعل ماضي، عبر عنها صاحب الفائق بالفعل (استعير) واستشهد عليها بما جاء في شعر زهير،وذكرالعلاقة بين النسيان والترك،والرجاء والخوف،مما يدل على فهمه العالي وذوقه الراقي وإدراكه الجيد لمرامي الكلام.

ومن ذلك النوع ما ذكره من استعارة مقدمة الجيش لأول كل شيء في حديث معاوية إلى صاحب الروم لما بلغه أنه يريد أن يغزو بلاد الشام: «لأكونن مقدمته إليكَ».

قال الزمخشري:«المقَدِّمة: الجماعة التي تَتَقَدَّم الجيش،من قَّدم بمعنى: تقدم،وقد استعيرت لأول كل شيء،فقيل منه: مقدِّمة الكتاب ومقدِّمة الكلام»[2].كلام الزمخشري واضح في أن مقدمة الجيش،وهي الجماعة من الجنود الذين يتقدمون الصفوف مستعار

---

[1] الفائق (١/٦٧، ٦٨).

(١) الفائق (١/٤٦).

لأول كل شيء وبدايته،فيقال:مقدمة الكتاب،ومقدمة الخطبة ومقدمة الكلام»،وهي استعارة تبعية؛لأنها في اسم الفاعل؛لأنها بكسر الدال.

ومن هذا الضرب الذي صرح فيه بلفظ الاستعارة ما جاء في السنة أنه ﷺ كان يصلي فيما بين العشاءين حتى ينصدع الفجر،إحدى عشرة ركعة،فإذا سكت المؤذن بالأولى من صلاة الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين»[1].

قال الزمخشري: -رحمه الله-:«أصل السكب:الصب،فاستعير للإفاضة في الكلام؛ كما يقال:هضب في الحديث، وأخذ في خطبة فسحلها»[2].فالمعنى الحقيقي للسكب الصب،كما ذكر الزمخشري،وإجراؤه الاستعارة في مصدره الفعل أولا يدل على براعته وذوقه البلاغي،وفي ذلك إشارة إلى أن الاستعارة التبعية تجري أولا في مصادر الأفعال، ثم تجري بعد ذلك تبعا في الأفعال والمشتقات ولذلك سميت تبعية؛ ،وصرح فيها بلفظ «استعير»وهي واضحة من خلال شرحه حيث استعير السكب للإفاضة،ثم تنوسي التشبيه،وادعى أن المشبه داخل في جنس

---

(٢) أخرجه أبو داود في سننه عن عائشة رضي الله عنها (٢/٢٩) رقم (١٣٣٦) وأحمد في المسند (٦/٨٣) رقم (٢٤٥٨١.)

(١) الفائق (٢/١٩٠).

المشبه به وفرد من أفراده،ثم اشتق منه بمعنى الإفاضة سكب بمعنى أفاض على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ويحتمل أن تكون الصورة من قبيل المكنية،حيث شبه أذان الفجر بالماء بجامع الاندفاع في كل ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهوسكب على سبيل الاستعارة المكنيةقال الإمام عبد القاهر: «فاض موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفارق مكانه دفعة فينبسط، ثم إنه استعير

للفجر كقوله:[1] كالفجر فاض على نجوم الغيهب.

لأن للفجر انبساطا وحالة شبيهه بانبساط الماء وحركته في فيضه»[2]،ولا تعارض بين التوجيهين،فيجوز جعلها تصريحية تبعية إذا أجريناها في الفعل«سكب»،ويجوز جعلها مكنية بالنظر إلى تشبيه أذان الفجر بالماء،وإن كان كلام الزمخشري وشرحه يرجح التبعية على المكنية،ومهما يكن من شيء فإن التعبير بالسكب عن الإفاضة يعد مما يسميه البلاغيون المجاز عن

---

(١) البيت للبحتري من الكامل وصدره: «بيدا كمون على الأسنة في الوغى» ينظر الديوان (٣١).

(٢) أسرار البلاغة.

المجاز،أو المجاز بمرتبتين؛ لأن السكب مجاز عن الإفاضة، والإفاضة مجاز عن الاندفاع في الكلام أو السير.

قال صاحب الفائق في حديث أبي بكر -رضي الله عنه- «أفاض وعليه السكينة»:«الإفاضة في الأصل: الصب؛ فاستعيرت للدفع في السير؛كما قالوا:صب في الوادي»[٣].

وقال في أساس البلاغة:«ومن المجاز وأفاضوا من عرفات،وأفاضوا في الحديث اندفعوا»[٤]،وفي لسان العرب: «وأفاض القوم في الحديث انتشروا، وقال اللحياني: هو إذا اندفعوا وخاضوا وأكثروا...، وفاض الحديث والخبر، واستفاض ذاع وانتشر، وحديث مستفيض ذائع»[١]،ومن ذلك ما جاء في كتاب الله في قوله تعالى: فإذا أفضتم ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ [٢] «الإفاضة هنا: الخروج بسرعة وأصلها فاض الماء إذا كثر على ما يحويه فبرز منه وسال...، والإفاضة أطلقت في هاته الآية على الخروج من مزدلفة ، والعرب كانوا يسمون الخروج من عرفة الدفع، ويسمون الخروج من مزدلفة إفاضة، وكلا الإطلاقين مجاز؛ لأن الدفع هو

---

[٣] الفائق (١/١٥١).

[٤] أساس البلاغة (فيض).

(١) لسان العرب (فيض).

[٢] البقرة(١٩٨)

إبعاد الجسم بقوة، ومن بلاغة القرآن أن أطلق الإفاضة على الخروجين؛ لما في أفاض من قرب المشابهة من حيث الكثرة دون الشدة؛ ولأن في تجنب دفعتم تجنبا لتوهم السامعين أن السير مشتمل على دفع بعض الناس بعضا؛ لأنهم كانوا يجعلون في دفعهم ضوضاء وجلبة وسرعة سير، فنهاهم النبي -ﷺ- عن ذلك في حجة الوداع،

وقال ﷺ : ليس البر بالإيضاع[٣] فإذا أفضتم فعليكم بالسكينة والوقار[١]."وقد قصدت نقل هذا الكلام ليتضح المعنى في بيان الإفاضة،وقد جاء مثل ذلك عن النبي ﷺ:«فأفاض من عرفة»قال ابن الأثير:«الإفاضة الزحف والدفع في السير بكثرة،ولا يكون إلا عن تفرق وجمع، وأصل الإفاضة:الصب فاستعير للدفع في السير،وأصله أفاض نفسه أو راحلته،فرفضوا ذكر المفعول حتى أشبه غير المتعدي،ومنه:طواف الإفاضة يوم النحر»[٢] ،تراه قال: "فأفاض من عرفة»،ولم يقل: فاندفع من عرفة، فكانت

---

(٣) الإيضاع: ضرب من السير،أو السير بين القوم ينظر النهاية= =(٢/٣٧٩) ولسان العرب (وضع).

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢/٢٣٨) وينظر الكشاف للزمخشري (١/١٤٥).

(٢) النهاية (٣/٤٨٥).

الاستعارة بليغة؛ لأنها أوحت بالسكينة والهدوء،وتلك بلاغة نبوية عالية تنبثق من بلاغة القرآن،وقد كان القرآن واحدا من أكبر العوامل التي أثرت في بلاغتهﷺحتى وصل إلى ما وصل إليه من لطافةالحس ، وقوة الطبع وحسن البيان وسلامة الفطرة والقدرة على التعبير عن المعنى وضده بأسلوب خالٍ من الإغراب والتعقيد،قادر على التأثير دائما،مشيد بالتأييد،وهذا من سمة بيانه ﷺ.

ونسير مع الزمخشري في كتابه الفائق لنجده يستخدم مسائل البلاغة وخاصة الاستعارة لإبراز ما في كلام النبي ﷺ وكلام أصحابه من قيم دلالية ومعانٍ سامية.من ذلك ما جاء في قول النبي -ﷺ -: «ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان».

فقال: «استعار الطعم لاشتماله عليه واستشعاره له»[1]،فنجده يصرح بلفظ «استعار» ويبين أنه إنما عبر بالطعم عن الاشتمال والاستشعار، وهو بذلك يلخص دور الاستعارة في إبراز المعنوي في صورة المحسوس،ويفهم من كلامه –رحمه الله- أنهﷺ شبه الشعور بالإيمان والاشتمال عليه بتذوق الطعم الجيد، ثم حذف المشبه ،ثم اشتق من الطعم بمعنى الاشتمال والاستشعار طعم

---

[1] الفائق (٢/٣٦١).

بمعنى اشتمل أو استشعر على سبيل الاستعارة التبعية، من استعارة المحسوس للمعقول، فأبرزت المعنى وقربته إلى النفس، هذا بالإضافة إلى ما فيها من حسن التعبير بالطعم، وقد ساعد هذا الأسلوب البياني على إفادة المبالغة في تعظيم شأن الخصال التي ذكرها النبيﷺ وهو أسلوب بليغ في حث الناس على فعلهن والالتزام بهن.

«وقد قال العلماء: معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رِضَى الله- عز وجل- ورسوله ﷺ ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا،ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك محبة رسول الله ﷺ» [1].

ومن هذا النوع ما ذكره في بيان قول النبي ﷺ :«خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الفَأْرَة، والعَقْرَب، والحِدَأَة، والغراب الأَبْقَع، والكلب العَقُور».

قال الزمخشري: «الفسوق: أصله الخروج عن الاستقامة والجور،قال رؤبة:

يذْهَبْن في نجدٍ وغَوْرًا غائرا فَوَاسِقًا عن قَصْدها جَوائِرا

---

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي محمد لطفي الصباغ (٢٧٨).

وقيل للعاصي فاسق لذلك؛ وإنما سميت هذه الحيوانات فواسق على سبيل الاستعارة لخبثهن ،وقيل: لخروجهن من الحرمة، بقوله: خمس لاَ حُرْمة لهن، فلا بُقْيَا عليهن ولا فِديَة على المحرم فيهن إذا ما أصابهن»[٢].

يفهم من كلام الزمخشري أن تعبير النبي ﷺ بـ «فواسق» استعارة، وقد وقعت في مشتق؛ لأن فواسق جمع فاسق، وهو اسم فاعل، لذلك كانت تبعية،واختيار مادة الفسق في وصف هذه المخلوقات للدلالة على أنها خارجة عن حدود الأمن؛ الذي يعد وصفا دائما للحرم كما أخبر عنه القرآن الكريم،ومن ثم قيل للعاصي فاسق كما ذكر الزمخشري؛ للدلالة على أنه خارج عن حدود الشرع مُعرَّض بسبب فسقه للعذاب والهلاك، كما تفسق الرطبة من قشرتها أي: تخرج.

قال أبو هلال العسكري: «والفسق في العربية خروج مكروه،ومنه يقال للفأرة:الفويسقة؛ لأنها تخرج من جحرها للإفساد، وقيل: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها؛ لأن ذلك فساد لها»[١].فالرطبة إذا خرجت من قشرتها أصبحت عارية ضعيفة

---

[٢] الفائق (٣/١١٦، ١١٧).

(١) الفروق في اللغة (٢٢٥).

معرضه للهلاك عاجزة عن الوقاية، فكذلك الفاسق وهو العاصي أو المؤذي من الحيوانات ، هو بفسوقه وخروجه عن الحق والدين والأمن يصبح معرضا للهلاك والقتل والعذاب، فكان التعبير بفواسق في حق الحيوانات ، وبالفاسق في حق الإنسان العاصي استعارة تصريحية تبعية ؛ لتصوير أذى هذه المخلوقات في الحل والحرم،وتصوير قبح العاصي وشذوذه وما يؤول إليه من مصير أسود.وقد صرح الزمخشري بلفظ الاستعارة، واستشهد على صحة المعنى المراد بما جاء في قول رؤبة، مما يدل على سعة اطلاعه، وإحاطته بأساليب العرب، فتذوق بلسانهم، وأيَّد فهمه بما تكلموا به.

وأحيانا تجد الإمام الزمخشري يعبر عن الاستعارة التبعية بلفظ التشبيه أو ما اشتق منه، ولعله بذلك كان يراعي الأصل في الاستعارة ؛ لأنها مبنية على التشبيه. من ذلك ما ذكره في حديث الحسن –رحمه الله-: «حادثوا هذه القلوب بذكر الله، فإنها سريعة الدثور».

قال –رحمه الله-: «محادثة السيف: تعهده بالصقل وتطريته»،قال زيد الخيل:

أحادثه بصقل كلَّ يوم وأعجمه بهامات الرجال

فشبه ما يركب القلوب من الرين بالصدأ وجلاءها بذكر الله بالمحادثة، والدثور : الدروس»[1] وبالتأمل في كلام الزمخشري يتضح لنا إجراء الاستعارة من أوجه مختلفة.

الأول: ما ذكره الزمخشري من تشبيه المرض أو الطبع الذي يكون على القلوب بالصدأ الذي يكون على السيوف.الثاني: أيضا ذكره الزمخشري وهو تشبيه جلاء الطبع والأمراض التي تراكبت عليها من الذنوب بذكر الله تعالى بجلاء الصدأ من على السيوف بالمحادثة.

الثالث: تشبيه القلوب بالسيوف، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو المحادثة على سبيل الاستعارة المكنية، ولازم المشبه به استعارة تخييلية وقد وقعت فيه الاستعارة التبعية التي أشار الزمخشري-رحمه الله- إليها.

وكلام الزمخشري يدل على براعة عالية في استشفاف الأسرار البيانية،لذكره صورتين من الاستعارة في بيان معنى قول الحسن وهو ما يخدم منهجه في شرح الغريب في الأحاديث والآثار،ومهما يكن من شيء فإن الصورة البيانية في كلام الحسن تبين فضل ذكر الله تعالى وأثره البالغ في نقاء القلوب وطهارتها؛

---

(١) الفائق (١/٢٦٨).

لأن القلب كالمرآة تتحلى فيه حقائق الأشياء كلها، ويحجبها أدناس الذنوب والشهوات التي هي كالصدأ، ولزوم ذكر الله يزيل الصدأ ويجلي حقائق الأشياء في قلب الإنسان، كما ورد عن النبي ﷺ :«إن لكل شيء صقالة وإن صقالة القلوب ذكر الله»[1]،وتلك بلاغة عالية تنبثق من بلاغة معلم البشرية محمد ﷺ ؛لأنهم تخرجوا في مدرسته وتربوا على يديه وقبسوا من بيانه ﷺ.

ومن هذا ما ذكره فيما ورد أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- قَضَى أن الوالد يعتصر ولده فيما أعطاه، وليس للوالد أن يعتصر من والده».

قال صاحب الفائق:«اتسع في الاعتصار، فقيل: بنو فلان يعتصرون العطاء، فقال:

۞ فَمَنَّ واسْتَبْقَى ولم يَعْتَصِرْ من فرعِهِ مالا ولا المُكْسِرُ

واعتصر النخلة: إذا ارتجعها،والمعنى أن الوالد إذ نحل ولده شيئا فله أن يأخذه منه، فشبه أخذ المال منه واستخراجه من يده بالاعتصار،وفي حديث الشعبي –رحمه الله- يعتصر الوالد على

---

(١) أخرجه الحافظ البيهقي في كتاب الدعوات.

ولده في ماله،وإنما عداه بعلى ؛ لأنه في معنى يرجع عليه ويعود عليه؛ ويُسَمَّى من يفعل ذلك عاصرا وعصورا»[1]

بالتأمل في كلام الزمخشري –رحمه الله- يتبين لنا أن الاعتصار: هو أن تخرج من إنسان مالا بغرم أو بوجه غيره، فإذا أعطى الوالد ولده مالا فله أن يأخذه منه ويرده، وليس للولد فعل مثل ذلك مع والده.وقد بين الزمخشري الصورة البيانية ووضحها بقوله: "شبه أخذ المال منه واستخراجه من يده بالاعتصار" يعني: ارتجعها فتقول: اعتصر العطية إذا ارتجعها، فشبه فعل الوالد مع ولده بفعل من يسترد من إنسان بوجه أو بغيره، وقد عبر هنا بلفظ «يعتصر»وصرح الزمخشري بالفعل «شبه» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والمقصود أن الإنسان إذا وهب إنسانا آخر مالا على وجه القربة فلا يجوز الرجوع فيه كالصدقة ولا يعتصر هذا، إلا إذا كان المعطي والدا لمن أعطى له فله الارتجاع.

وللزمخشري لمحات بلاغية عالية يدرك ما تنطوي عليه الاستعارة من تقريب للمعقول في صورة المحسوس، حتى يكون مألوفا للنفوس فيكون تأثيرها أعلى. من ذلك ما ذكره في قول النبي ﷺ:«إذا أراد الله بعبد خيرا عسله، قيل: يا رسول الله،وما عسله؟

---

(١) الفائق (١/٤٣٨، ٤٣٩).

قال: يفتح له عملا صالحا بين يدي موته، حتى يرضى عنه من حوله».

قال:«هو من عسل الطعام يغْسِله ويعسُله،إذا جعل فيه العسل؛كأنه شبه ما رزقه الله من العمل الصالح الذي طاب به ذكره بين قومه بالعسل الذي يُجْعل في الطعام فيحْلو به ويطيب»[1]،فقد شرح الزمخشري الاستعارة ووضحها تمام الوضوح ولم يبق إلا أن يضع لها مسماها البلاغي الذي استقر عليه المتأخرون من علماء البلاغة.فقد استعار العسل لطيب الثناء، من قبيل استعارة محسوس لمعقول والجامع عقلي؛ لأنه غير مدرك بإحدى الحواس،وعبر عن هذه الاستعارة بلفظ التشبيه، وذِكْر المصدر إشارة منه إلى أن الاستعارة تجري في الفعل تبعا لجريانها للمصدر.وقد زاد الشريف الرضي أمر هذه الاستعارة وضوحا عندما تكلم عنها فقال: «ومعنى عسله: أي جعل عمله حلوا يحمده الصالحون، ويرضاه المتقون، فيكون كالشيء المعسول الذي يسوغ في اللهوات ويلذ على المذاقات»[1].وبذلك ظهر ما في الاستعارة من تصوير للمعقول في صورة المحسوس فقربت المعنى،

---

(١) الفائق (٢/٤٢٩).

[1] المجازات النبوية (صـ٣٠).

وتلك بلاغة نبوية اتسمت بفصاحة المنطق وروعة التعبير، حتى لا ترى فيها لفظا نابيا عن غرضه، ولا قلقا عن موضعه، بل هو مؤد للغرض، مراع للمقام.

وكما تناول الزمخشري الاستعارة التبعية بلفظ الاستعارة أو التشبيه الذي قامت عليه الاستعارة تناولها كذلك وعبر عنها بلفظ المثل أو التمثيل،وهو لا يقصد التمثيل في اصطلاح البلاغيين؛لأن المصطلحات البلاغية لم تستقر في عصره،فضلا على أنه كان ينقل عن غيره من علماء غريب الحديث الذين سبقوه ولم تستقر عندهم مصطلحات البلاغة.

من ذلك ما ذكره في قول النبي ﷺ:«أمرت بقرية تأكل القرى».

قال الزمخشري: «أي: يفتح أهلها القرى ويغنمون أموالها؛ فجعل ذلك أكلا منها للقريعلى سبيل التمثيل، ويجوز أن يكون هذا تفضيلا لها على القرى، كقولهم: هذا حديث يأكل الأحاديث»[1].هنا وقف الإمام الزمخشري عند تعبير النبي ﷺ بالأكل، وبين أن المراد منه إما الفتح يعني: قرية يفتح أهلها القرى ، وإما الفضل يعني: قرية تفضل القرى.

---

(١) الفائق (١/٥١).

ويفهم من خلال تحليله وشرحه أن الصورة البيانية في الحديث من قبيل الاستعارة فقد استعار الأكل للفتح، ثم اشتق من الأكل تأكل بمعنى تفتح على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وقد مال إلى هذا الوجه الشريف الرضي قال: «المراد أن أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم ويغتنمون أموالهم، فكأنهم لهذه الأحوال يأكلونهم، وخرج هذا القول على طريقة للعرب معروفة؛ لأنهم يقولون: أكل فلان جاره إذا عدا عليه، فانتهك حرمته واصطفى حريته، وعلى ذلك قول علقمة بن عقيل لأبيه في أبيات:

أكلتَ بنيك أكلَ الضبِّ حتى وجدت مرارة الكلإ الوبيل

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية:ويْحَ قريش لقد أكلتهم الحرب، يريد أنها قد أفنت رجالهم،وانتهبت أموالهم،فكانت من هذا الوجه كأنها آكلة لهم»[1].

وهذا التفسير هو الراجح، ولذا قدمه الزمخشري في تفسير كلمة«تأكل»وأيده الشريف الرضي واستشهد على صحته بما جاء في حديث آخر عن النبي ﷺ،بما جاء في شعر العرب،مما يؤكد أن النبي ﷺ كان يخاطب الناس بما يعرفونه؛ليكون وقع كلامه شديدا عليهم.كما يحتمل تعبير الزمخشري أن يكون المشبه

---

(١) المجازات النبوية (صـ٢٢٠).

في هذه الاستعارة هو الفضل ويكون قد شبه تفضيل هذه على القرية على غيرها بالأكل واستشهد على هذا بما ورد في لغة العرب من قولهم: هذا حديث يأكل الأحاديث أي: يفضله، فتذوق بلسانهم.

والراجح- والله أعلم-، هو الأول؛ لأنه الأقرب إلى الفهم والذوق ولوروده في حديث آخر عن النبي ﷺ وشعر العرب.ومهما يكن من شيء فإن الصورة البيانية تبين فضل هذه القرية وهي«يثرب»على غيرها من القرى،وفيها بشرى للمسلمين بالنصر والظفر بأعدائهم،ودلالة على أنهم سيعلون على غيرهم، ولا عجب في ذلك ففيها يعيش أصحابه رضي الله عنهم ، وهم جيل مثالي يمثل قمة شامخة في البر والفضل والتقوى والورع؛ لذلك صاروا مصابيح الهدى نشروا الحق والعدل وحاربوا الظلم والفساد رضي الله عنهم أجمعين

وقد صرح الزمخشري بلفظ التمثيل وهو يقصد المعنى اللغوي لا الاصطلاحي.

ومن هذا الضرب ما جاء في قول النبي ﷺ: «المؤمن يأكل في معًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

قال صاحب الفائق: «قالوا: ذُكِر له رجل أكول قد أسلم فقلَّ أكله، فقال ذلك، وقيل: هو تمثيل لرضا المؤمن باليسير من الدنيا، وحرص الكافر على التكثر منها.

والأوجه: أن يكون هذا تحضيضا للمؤمن على قلة الأكل، وتحامي ما يجرُّه الشِّبَع من قسوة القلب والرّين وطاعة الشهوة البهيمية وغير ذلك من أنواع الفساد.

وذِكْرُ الكافر ووَصْفُه بكثرة الأكل إغلاظٌ على المؤمن، وتأكيدٌ لما رُسِم له، وحضه عليه، وناهيك زاجرا قوله تعالى: {يأكلون كما تأكل الأنعام}[1].

ذكر الإمام الزمخشري عدة وجوه في فهم هذا الحديث، فبين أولا: سبب ورود الحديث حيث قيل في رجل كافر أكول فلما أسلم قلَّ أكله، ويحتمل أن يكون الكلام من باب الحقيقة، وقد قال أهل الطب: لكل إنسان سبعة أمعاء المعدة ثم ثلاثة متصلة بها رقاق، ثم ثلاثة غلاظ، فالكافر لشرهه وعدم تسميته لا يكفيه إلا ملؤها، والمؤمن لاقتصاده وتسميته يشبعه ملء أحدها[2]،ثم ذكر وجها ثانيا عبر عنه بلفظ التمثيل، وفيه يكون قد شبه رضا المؤمن

---

(١) الفائق (٣/٣٧٣، ٣٧٤) والآية من سورة محمد (١٢).

(٢) أثر التشبيه في تصوير المعنى قراءة في صحيح مسلم د/ عبد الباري طه ١٥٦٢ (صـ٢٢٧).

بالقليل بالأكل في معيٍ واحدة، ثم اشتق من الأكل بمعنى الرضا يأكل بمعنى يرضى على سبيل الاستعارة التبعية،وكذلك شبه شره الكافر وحرصه على الدنيا بالأكل في سبعة أمعاء على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وقد صورت الاستعارة فضل المؤمن وقناعته ورضاه باليسير من الدنيا وصورت بشاعة الكافر وشره ونهمه وعدم رضاه بأي شيء ولو ملك الدنيا كلها.

«فالمؤمن يقنع من مطعمه بالبلغ[1] التي تمسك الرَّمق، وتقيم الأوَد دون المآكل التي يقصد بها وجه اللذة،ويقضي بها حق الشهوة، فكأنه يأكل في معاء واحد لفرط الاقتصار وكراهة الاستكثار. وأما الكافر: لتبحبحه في المآكل، وتنقله في المطاعم، وتوخيه ضد ما يتوخاه المؤمن من إحراز حطام الدنيا التي يطلب عاجلها ولا يأمل آجلها، فهو عبد فيها للذته، وكادح في طاعة شهوته كأنه يأكل في سبعة أمعاء»[2].

ولا يخفى ما في هذه الصورة الاستعارية من إبراز للمعقول في صورة المحسوس؛ لتصوير فضل المؤمن وقبح الكافر كما تقدم،

---

(١) ما يتبلغ به من العيش هامش المجازات النبوية (صـ٢٤٨).

(٢) المجازات النبوية (٢٤٨).

وعبر عنها بلفظ التمثيل،وهي ليست تمثيلا في اصطلاح البلاغيين، وهذا على التوسع منه في إطلاق المصطلحات، كما يفهم من تحليل الزمخشري للمعنى المراد أن هذا من صور التعبير بالخبر عن الإنشاء، وهو الراجح عنده حيث قال في تفسيره: «والأوجه..» ،والمعنى أنه خبر أريد به إنشاء؛ لأن فيه أمر المؤمن بقلة الأكل؛ لكيلا يؤدي ذلك إلى قسوة قلبه، وبين علة ذكر الكافر بأنه (إغلاظ) على المؤمن ، وتأكيد لما رسم له، وحضه عليه، لذلك أمره بالاقتصاد في الأكل.

وبذلك تظهر براعة الزمخشري الرائعة في استشفاف الأسرار البلاغية التي يحتملها النص الذي يشرحه، مما يؤكد طبعه البلاغي الذي اشتهر به في تفسيره الكشاف، وقد ذكر في الفائق الكثير من أضرب البيان النبوي، بأسلوب موجز بليغ، يكشف عن رفاهية حسه وتدفق درايته ورجاحة عقله.

من ذلك ما ذكره في حديث النبي ﷺ لما ذكر عنده شريح الحضرمي فقال: «ذلك رجل لا تتوسد القرآن».قال صاحب الفائق: «يحتمل أن يكون مدحا له ووصفا بأنه يعظم القرآن ويُجلُّه ويُداوم على قراءته، لا كمن يمتهنه ويتهاون به، ويخل بالواجب من تلاوته.وضرب توسده مثلا للجمع بين امتهانه والاطراح له ونسيانه، وأن يكون ذما ووصفا بأنه لا يُلازم تلاوة

القرآن، ولا يواظب عليها ولا يكبُّ ملازمة نائم لوساده وإكبابه عليهـا.فمـن الأول:قولـه ﷺ:لا توسـدوا القرآن،واتلـوه حـق تلاوته،ولا تستعجلوا ثوابه،فإن له ثوابا.وقوله: من قرأ ثلاث آيات في ليلة لم يبت متوسدا للقرآن.

ومن الثاني: ما يروى أن رجلا قال لأبي الدرداء: إني أريد أن أطلب العلم، فأخشى أن أضيّعه. فقال: لأن تتوسد العلم خير لك من أن تتوسد الجهل»[1]

وقف الإمام الزمخشري عند هذا لحديث وقفة متأنية بيّن فيها كل ما يحتمله التعبير مؤيدا مايقوله بالأحاديث والنصوص،ويلاحظ على كلام الزمخشري أن فهم الحديث يتوقف على فهم التمثيل، فقد وقف محللا معناه والغرض المقصود، وأن معنى المثل في كلامه هو الاستعارة التبعية عند المتأخرين من البلاغيين،وهذا أصل بينه في شرحه ولم ينقل فيه خلافا.

قال في أساس البلاغة: «ومن المجاز: هو عريض الوساد: للأبله، وهو يتوسد الهم»[2] ومن ثم يفهم من التعبير استعارة مكنية مبنية على تشبيه الهم بالوسادة بجامع التلاصق والتلازم ،واستعارة تبعية

---

(١) الفائق (٤/٥٩).

(٢) أساس البلاغة (وسد).

مترتبة على تشبيه ملازمة الهم بالتوسد.وبناءً على ذلك يلاحظ في الحديث الذي معنا أن تعبيره بالمثل لا يقصد به المثل في اصطلاح المتأخرين، ولكنه يريد الاستعارة إما المكنية أو التبعية وهي الأقرب،ثم بين الزمخشري- رحمه الله- أن التعبير بـ «لا يتوسد القرآن».يحتمل مدحا ويحتمل ذما.وإجراء الاستعارة على الأول أن يقال:شبه ملازمته القرآن بالتوسد، ثم اشتق من التوسد يتوسد بمعنى يداوم على قراءته ولا يخل بالواجب من التلاوة على سبيل الاستعارة التبعية.وعلى الثاني يقال:شبه غفلته ونسيانه واطراحه للقرآن بالتوسد الملازم للوسادة وإكبابه عليها طول الليل على سبيل التبعية أيضاثم ذكر ما يدل على إرادة الغرضين المدح والذم ولم يرجح أحدهما.

كما يفهم من خلال شرحه للمعنى المراد أن التعبير يصلح أن يكون من قبيل الكناية عن طول الملازمة والانشغال التام، إما بأمر عظيم يعلو به الإنسان كالقرآن والخلافة والقضاء وإما بآخر كالهَمّ والغفلة، ومما تقدم يتضح ترتب الكناية . وهي المعنى الكلي . على ما كان المجاز في بعض أفراده، وهو مذهب الزمخشري،ولا يخفى ما في هذه الصورة البيانية من تجسيد الملازمة الطويلة وهي أمر معنوي إلى شخص ما ، حيث جعلت هذا الأمر كأنه وسادة تلازمه في كل زمان ومكان.

١٥٦٦

قال الشريف الرضي:«وهذه من الاستعارات العجيبة،والكنايات الغريبة وهي تحتمل معنيين:أحدهما مدح، والآخر ذم..»،ثم ذكر كلاما قريبا من كلام الزمخشري رحمه الله. وبذلك يتضح لنا دقة الإمام الزمخشري وحسه البلاغي

وثقافته المتعددة الجوانب، فتراه يحاول ذكر المعاني المحتملة في النص بإيجاز وافٍ بليغ، واستطاع بما وهبه الله من واسع العلم ووفير الفضل أن يتناول في كتابه الفائق الاستعارة التصريحية الأصلية منها والتبعية.

المبحث الثاني :الاستعارة المكنية:

هي الاستعارة التي حذف منها المستعار منه (المشبه به)،ورمز إليه بشيء من لوازمه،قال صاحب الإيضاح:«فيضمر التشبيه في النفس، فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه،ويدل عليه بأن يُثْبَت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلا أُجري عليه اسمُ ذلك الأمر، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية، أو مكنيًا منها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية»[1].

وقال الإمام عبد القاهر:«...وضرب آخر من الاستعارة وهو ما كان نحو:إذ أصبحت بيد الشمال زمامها»[2].

هذا الضرب وإن كان الناس يضمونه إلى الأول[يعني التصريحية] حيث يذكرون الاستعارة فليسا سواء، وذلك أنك في الأول تجعل الشيء الشيء ليس به، وفي الثاني تجعل الشيء للشيء ليس له، تفسير هذا أنك إذا قلت: رأيت أسدا فقد ادعيت في إنسان أنه أسد، وجعلته إياه،ولا يكون الإنسان أسدا، وإذا قلت:إذا أصبحت بيد الشمال زمامها.

---

(١) الإيضاح بتعليق التبعية (٣/٥٢٠).

[2]هذا عجز بيت صدره: «وغداة ريح قد وزعت وقرة» وهو للبيد من الكامل ينظر ديوانه (صـ١٧٦) والمعلقات السبع (صـ٢٢٤).

فقد ادعيت أن للشمال يدا، ومعلوم أنه لا يكون للريح يد»[(١)]. «وتسميتها استعارة؛ لأن لفظ المشبه به مستعار في النفس للمشبه، فهو مستعمل في المشبه تقديرا، وهو غير ما وضع له، والعلاقة هي المشابهة. ومكنية؛ لأنه لم يصرح بالمستعار، بل دل عليه بذكر خواصه ولوازمه، والكناية في اللغة الخفاء، فهي استعارة ملازمة للخفاء"[(٢)].

والمتتبع لكلام الإمام الزمخشري في كتابه الفائق في غريب الحديث يلاحظ: أنه لم يذكر مصطلح الاستعارة المكنية أو الاستعارة بالكناية ، بل كان يتعرض لها، ويشرحها ،ويبين أنها استعارة فقط، جريا على عادته التي ألفناها في توضيح الاستعارة التصريحية.

ولكن إشاراته تدل على أنه كان يقصد مسمى الاستعارة بالكناية وحقيقتها، ولم يقسم المتأخرون من علماء البلاغة بعده إلا أن وضعوا لها إطارا ومصطلحا، وإشاراته تكشف عن قيمة هذا اللون من البيان في التصوير والتأثير البالغ،والإيحاء القوي.

وقد تناولها بنفس المنهج الذي تناول به الاستعارة التصريحية،

---

(١) دلائل الإعجاز (صـ٦٧).

(٢) نظرات في البيان (صـ١٧٩) د/ محمد عبد الرحمن كردي.

فأحيانا تجده يصرح بلفظ الاستعارة أو ما اشتق منها دون أن يذكر أنها مكنية، ولكنها تفهم من تحليله للنص.

من ذلك ما جاء أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أراد أن يدخل الشام،وهو يستعر طاعونا؛ فقال له أصحاب رسول الله ﷺ إن معك من أصحاب رسول الله ﷺ قرحانون[1]، فلا تدخلها».

قال الزمخشري:" أصل الاستعار: الاشتغال، ثم استعير، فقيل: استعرت اللصوص، واستعر الشر والحرب في البعير، والمعنى: الكثرة والانتشار، والأصل إسناد الفعل إلى الطاعون، فأسند إلى الشام، وأخرج ما كان الفاعل منصوبا على التمييز كقوله تعالى: " ۞ ث ث "[2]، وإنما يفعل هذا للمبالغة والتأكيد[3]"

بالتأمل في تحليل الإمام الزمخشري يتبين لنا أن إعراب "طاعونا" تمييز محول عن الفاعل، وأصله استعر الطاعون في الشام، فأسند الفِعل إلى المكان، وفي هذا مجاز عقلي علاقته المكانية، والأصل

---

(١) جمع: قرحان وهو الأملس من الداء وأصله من لم يصبه جدري ولا حصبة، وللحذر عليه من أن يصاب بالعين اشتقوا له الاسم من القرح. الفائق (٢/١٨٠).

(٢) سورة مريم (٤).

(٣) الفائق (٢/١٨٠).

استعر الطاعون، وفي هذا استعارة مكنية ،ويمكن أن يقال فيها: أنه شبه الطاعون بالنار ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الاستعار، وهو من لوازم النار؛ لأن أصله كما قال الزمخشري الاشتعال، ثم استشهد على صحة المعنى المجازي بما أورده من قولهم: استعر الشر والحرب في البعير،يعني سرعة الانتشار في المكان، وقد أشار الزمخشري إلى وجه الشبه بين الطرفين بقوله: «والمعنى الكثرة والانتشار» واستشهد على ذلك بآية من كتاب الله" ڈ ث ث "، وصرح بلفظ الاستعارة،ولك أن تقول في الاستعارة:شبه عموم الطاعون أرض الشام بعموم النار في الفحم بجامع سرعة الانتشار في كل ثم حذف الثاني،ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الاستعار يعني الاشتعال.على سبيل الاستعارة المكنية.وقد بينت الاستعارة الحالة السيئة التي كانت عليها بلاد الشام،ومدى الابتلاء الذي وقع فيه أهله، مما جعل أصحاب النبي ﷺ يحذرون عمر –رضي الله عنه- من دخولها خوفا عليه وعلى أصحاب النبي ﷺ .

ومن هذا الضرب ما جاء عن العباس –رضي الله عنه- تَقَدَّم الناسُ يوم فتح مكة،فقال: يا أهل مكة، أسلموا تسلموا؛ فقد استُبْطِنْتُم بِأَشْهَب بازل».

قال الإمام الزمخشري:«أي: بأمر صعب شديد، والأصل فيه: العام الأشهب؛ لأن الأرض تشْهابّ من وقوع الصقيع، وتذهب خضرة النبات،وكثُر ذلك حتى قالوا:شَهِبتهم السّنة، وهي شَهُوب وأصابتهم شُهْبَة من قرّ ومن سَنة،وجعله بازلاً استعارة،من البعير البازل؛لأن البزول نهاية في القوة»[1].

يفهم من كلام الإمام الزمخشري أن التعبير في حق العام بالبازل استعارة مكنية، حيث شبه العام الذي أصابهم بالبعير الذي بلغ النهاية في القوة، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو قوله "بازل" على سبيل الاستعارة المكنية.وصرح فيها بلفظ الاستعارة ، وقد أفادت الصورة البيانية المبالغة في تخويفهم من قوة المسلمين،وهي ليست قوة ظالمة؛لأنه وصفها بالخير والنفع،وتظهر براعة الاستعارة وقوة تأثيرها في اعتمادها على عنصر من عناصر الطبيعة التي يألفونها،ويعتمدون عليها في حالتي الحرب والسلم؛وهي الإبل لما لها من أهمية كبرى عندهم،فجعلها مشبها به؛مخاطبة لهم بما يعرفونه فلائمت حالهم، ؛لأنه مَثَّل بما استقر في طبعهم واستهوته نفوسهم،وراعى منزعهم في تناول الصورة

---

(١) الفائق (٢/٢٧٢).

البيانية،فصور وأجاد وأبدع،وفي هذا ما فيه من تيئيسهم؛لأنهم لا طاقة لهم بهذا الجيش.

ومما هو على شاكلته في كلام خالد بن الوليد -رضي الله عنه- خطب الناس فقال:"إن عمر استعملني على الشام،وهو له مهمّ؛فلما ألقى الشام بَوَانِيَه، وصار بَثَنِيَّةً وعَسَلاً عَزَلَني واستعمل غيري...»

«البواني: أضلاع الزَّوْرِ لتضامّها، الواحدة بانية،ويقال: ألقى البعير بوانيه،كما يقال: ألقى بَرْكه [أي: صدره]،وألقى كَلْكَلَه: إذا استناخَ، فاستعاره لاطمئنان الشام وقرار أموره»[1].

بالتأمل في تحليل الزمخشري يفهم أن خالد بن الوليد جعل للشام بواني وهي الأضلاع، وهي مستعملة على سبيل الحقيقة في البعير، فتقول: ألقى البعير بوانيه،كما يقال: ألقى كلكله، وبناءً على ذلك يكون في التعبير استعارة مكنية، حيث استعار البعير للشام، ثم حذف المشبه به،ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو البواني، وذلك على مذهب البلاغيين.

والغرض المقصود من هذا التصوير هو التعبير عن اطمئنان بلاد الشام واستقرارها كما صرح بذلك الزمخشري.ولا يخفى ما في هذه

---

(١) الفائق (١/١٣١).

الصورة من إبراز المعقول في صورة المحسوس فقربت المعنى ووضحته، بمخاطبة الناس بما قد تعارفوا عليه وألفوه في حياتهم.وتحليل الزمخشري ينُم عن ذوقه البلاغي، ودقته في استخدام مسائل البلاغة، وخاصة الاستعارة لإبراز ما في كلام النبي ﷺ من قيم ودلالات تثرى الفكر وتمتع العقل.

وقد تجد الإمام الزمخشري يتناول الاستعارة المكنية ويوضحها لكنه يعبر عنها بلفظ التشبيه، وهو بذلك يراعي الأصل في الاستعارة؛ لأنها مبنية على تشبيه حذف منه أحد الطرفين.

من ذلك ما جاء في حديث النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: اكفف عليك لسانك ! فقال: يا رسول الله أوَ إنا لمأخوذون بما نتكلم؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكبُّ الناسَ على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم».

قال الزمخشري: «جمع حصيدة، وهي ما يحصد من الزرع، شبه اللسان وما يقتطع به من القول بحد المنجل، وما يقطع به من النبات»[1].يفهم من كلام الزمخشري أن الاستعارة في قول النبي ﷺ:«حصائد ألسنتهم»،وتحليله لها يدل على أنها مكنية؛ لأنه صرح فيها بالطرفين، فقال: شبه اللسان وما يقتطع به من القول

---

(١) الفائق (١/٢٨٧).

بحد المنحل وما يقطع به من النبات، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الحصائد على سبيل الاستعارة المكنية، وإضافة الحصائد إلى الألسنة قرينة للاستعارة، وهي بذلك تتوغل في الحسن والبلاغة.

قال ضياء الدين ابن الأثير:«ألا ترى أن المنحل لم يذكر هاهنا،وإنما ذكرت صفته،وهو الحصد»[(١)].ويحتمل أن تكون الاستعارة في الحديث من قبيل التمثيلية،ويكون النبي ﷺ: «شبه ما تقذف به ألسنتهم من الأقوال المذمومة التي تسوء عواقبها، ويعود عليهم وبالها، بالزراع الذي يستوبئ عاقبة زرعه، والغرس الذي يستَمِرّ[(٢)] ثمرة غرسه، وهذا كقول القائل لمن أخذ بجريرة، وعوقب على جريمة: احصد ما زرعت، واستوفِ أجر ما غرست»[(٣)].

قال صاحب المثل السائر: «فقوله: حصائد ألسنتهم من تشبيه المركب بالمركب، فإنه شبه الألسنة وما تمضي فيه من الأحداث

---

(١) المثل السائر (١/٣٧٥)، وينظر التصوير الفني في الحديث النبوي (صـ٦٠، ٦١) د/ محمد لطفي الصباغ.

(٢) يستمر الثمرة: يجدها مُرَّة ينظر هامش المجازات النبوية (صـ١١٤).

(٣) المجازات النبوية (صـ١١٤).

التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض، وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع إلا من النبيﷺ»[1] والراجح الأول.

وسواء أكانت الاستعارة في الحديث مكنية أم تمثيلية؛ فإن التركيب يفيد أن ألسنة الناس التي يستخدمونها في معصية الله تكون من أهم أسباب تقلبهم في نار جهنم؛ لأنهم كانوا يخوضون به في أعراض الناس، ويمزقون أديمهم، كما أن آلة الحصاد تأكل وتمزق كل ما في طريقها من غير تفرقة بين نافع وضار، فكذلك اللسان الذي لا يتحرى الصدق والحق.

فتأمل هذه البلاغة النبوية العالية،والتي فيها من الاختصار والجزالة وحسن التصوير، وروعة التشبيه والجدة والطرافة ما فيها، وهذه هي سمة البيان النبوي الذي يكشف عن ملابسات دقيقة في غاية السمو والأدب،حتى ليعجز القلم عن وصف ما ازدان به بيانه ﷺ من روائع المعاني ، ولطائف المضامين التي توجه البلغاء والأدباء والكتاب في كتاباتهم ؛ ليكون هذا الأسلوب هو شعارهم في كل زمان ومكان.

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما جاء في عهد سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن رجلاً خطب فأكثر ،فقال عمر:

---

[1] المثل السائر (١/٣٨٧).

إن كثيراً من الخطب من شقاشق الشيطان .

قال الزمخشري:"الشِّقْشِقة: لحمة تخرج من شدق الفحل الهادر كالرئة،قال الأعشى:

واقْنَ فإني طَبِنٌ عالم أقطع من شِقْشِقَة الهادِرِ

و قال ابن مُقْبِل:

عاد الأذِلَّةُ فى دار وكان بها هُرْتُ الشقاشِق ظلامون للجُزُرِ

يشبه الفصيح المنطيق بالفحل الهادر،و لسانه بشقشقته،وقوله : من شقاشق الشيطان أي :مما يتكلم به الشيطان ، لما يدخل فيه من الكذب و الباطل " [1]

فهم من تحليل الزمخشري أن في تعبير عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- بالشقاشق استعارة،وضحها بقوله: "يشبه الفصيح المنطيق بالفحل الهادر"، ثم حذف المشبه به، و رمز إليه بشيء من لوازمه، وهو قوله:" شقاشق " أى: اللحمة التى تخرج من شدق الفحل ،وفى هذه الصورة مبالغة في ذم الكذب والباطل الذي يكون في كثير من الخطب ،و الغرض منها القبيح و التنفير .كما أن قول الزمخشري:"أى: مما يتكلم به الشيطان .." يشير إلى الوجه القائم فى بيان الاستعارة ؛لأنه أثبت للشيطان

---

[1] الفائق (٢/٢٥٧ ، ٢٥٨)

شقاشق،وهذا الإثبات استعارة تخيلية،وهي قرينة المكنية،فيكون قد شبه الشيطان بالبعير الهادر،وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "شقاشق"و لازم المشبه به مضاف،و المشبه و هو لفظ الشيطان مضاف إليه،و قد عبر عنها بقوله : " يشبه الفصيح المنطيق بالفحل الهادر الخ .. "

و أحياناً تجد الزمخشري - رحمه الله – يشير إلى الاستعارة المكنية بلفظ(المثل)فمن ذلك ما أشار إليه من استعارة (الأطيط) وهو صوت أقتاب الإبل وصوت الإبل وحنينها في قول النبي ﷺ:" أطت السماء و حُق لها أنْ تئط،فما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد "

قال رحمه الله:" الأطيط : الحنين والنقيض،و المعنى أن كثرة ما فيها من الملائكة أثقلتها حتى أنقضتها،و هذا مثلٌ و إيذان بكثرة الملائكة،وإن لم يكن ثَمَّة أطِيط" [1]

يفهم من تحليل الزمخشري أن الاستعارة فى قولهﷺ: (أطت السماء)؛لأنه أثبت للسماء أطيطاً ولا أطيط لها على سبيل الحقيقة، وعلى هذا يكون قد شبه السماء بالإبل،ثم حذف المشبه به و رمز إليه بشيء من لوازمه،وهو الأطيط،وهو قرينة

---

[1] الفائق (٤٩/١)

الاستعارة المكنية وقد عبر عن هذه الصورة بقوله:" مثل و إيذان بكثرة الملائكة " قال ابن علان :" ..استعارة بالكناية ، شبهت السماء بذي الصوت من الإبل،ثم ذكر شيئاً من لوازم الإبل والأقتاب المركوب عليها ،وهو الصوت المعبر عنه بقوله : "أطت" لينتقل الذهن منه إليه"[١]وهذا معنى معروف عند العرب قال الأعشى :[٢]

ألست منتهياً عن نحت أثلتنا و لست ضائرها ما أطت الإبل

وقد أفادت هذه الصورة المبالغة في كثرة الملائكة التي تعبد الله في السماء،واعتمدت في تصويرها على عناصر من الطبيعة في مخاطبة الناس؛لتقريب الصورة،حتى يكون لها تأثير قوى في نفوسهم .

و من أمثلة هذا النوع من الاستعارة ما جاء في قول الحجاج : إن أمير المؤمنين نكب[٣] كنانته بين يديه،فعجم عيدانها" قال: " عجم العيدان مثل لنفسه و لرجال السلطان . [٤]

---

[١] دليل الفالحين شرح رياض الصالحين (٣٠٢/٢ / ٣٠٣)

[٢] من البسيط وهو بديوانه صـ١٣٣ و لسان العرب (أثل) ، (أطط)

[٣] نكب كنانته : كبها و نثر ما فيها

[٤] الفائق ١٣/٤

والعجم كما ذكره صاحب اللسان :"هو عض شديد بالأضراس دون الثنايا وعجم الشئ ... عضه ليعلم صلابته من خوره ... و عجم الرجل رازه على المثل " [١]

يفهم من كلام الإمام الزمخشري أن إثبات العجم فى حق اللسان استعارة مكنية،شبه فيها الرجل بشيء يُعَض و يعجم ،وحذف المشبه به،ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو العجم؛لأن عجم الأشياء لمعرفة ضعفها أو قوتها حقيقة .

و يتراءى لي- و الله أعلم – أن هذه الصورة من قبيل التمثيلية،شبه فيها حال أمير المؤمنين و هو يختار أحد رجاله من بين الناس؛ ليكون والياً على العراق كمن يفحص أعواده الموجودة عنده ؛ليتخذ منها عصا – مثلا – ثم حذف التركيب الدال على المشبه و استعار له التركيب الدال على المشبه به .

وقد يشرح الزمخشري الاستعارة المكنية من غير أن يصرح فيها بألفاظ الاستعارة والتشبيه والمثل،ولكنها تفهم من كلامه، و شرحه لها يدل عليها .

من ذلك ما جاء فى قوله ﷺ:"دب إليكم داء الأمم من قبلكم البغضاء و الحالقة "

---

[١] لسان العرب (عجم)
١٥٨٠

قال الزمخشري :" هي قطيعة الرحم و التظالم ؛ لأنها تجتاح الناس و تهلكهم ، كما يُحلق الشَّعر ، يقال : وقعت فيهم حالقة لا تدع شيئاً إلا أهلكته "[1]

الحديث الشريف يمثل صورة من صور التحذير الشديد التي حذر منها المعصوم ﷺ فقد أخبر عن داء وفتنة ضلالها كبير وإغواؤها شديد،ويفهم من تحليل الزمخشري أنه صور الداء الذي نزل بهم وهو قطيعة الرحم والظلم- كما فسره- ، بالآلة المبيرة المهْلِكة ، أي : هذه الصفة الذميمة هي الداء المهلك الذي حل بكم ،يهدم الأخلاق ويستأصلها كما يستأصل الموس الشعر ، ثم حذف المشبه به و رمز إليه بشيء من لوازمه ، و هو قوله الحالقة ، على سبيل الاستعارة المكنية .وقد أفادت هذه الاستعارة المبالغة في خطورة هذا الداء ،وأن تأثيره واسع ،يغرق الناس في غمرته تبعاً لأهوائهم ومصالحهم وشهواتهم،ولا ينجو منه إلا من اعتصم بحبل الله المتين وتمسك بسنة رسوله ﷺالأمين، وقد كشف الزمخشري — رحمه الله — عن هذا المعنى ،وبين الاستعارة من غير أن يصرح بلفظ الاستعارة أو التشبيه أو لفظ التمثيل،ولكنها تفهم من خلال شرحه،وقد كشف بذلك عن ملابسات دقيقة في كلامه

---

[1] الفائق ١/٣١٣

ﷺ ومعانٍ مهمة في حياة المسلمين، و تنبيههم عليها مما جعل بيانه ﷺ يحتل المرتبة الأولى فى البيان البشرى، حتى ليعجز اللسان عن وصف ما ازدان به قوله ﷺمن روائع المعاني .

ومن هذا ما جاء فيما ورد أنه مات رجل من الطاعون فى بعض النواحي أو الأرياف ففزع له الناس، فقال ﷺ :"من بلغه ذلك فإني أرجو أن لا يَطْلُع إلينا نِقابها "

قال الزمخشري:"طلع النشز؛إذا أشرف عليه،والضمير في نقابها للمدينة،والنقاب:الطرق فى الجبال،الواحد نقْب، والمعنى:أرجو أن لا يصل الطاعون إلى أهل المدينة "[1]

فقوله ﷺ: "أرجوا أن لا يَطْلُع إلينا نقابها" من تعبيرات النبي ﷺ البلاغية التي اتسمت بالفصاحة و البيان، وهو ما يسميه علماء اللغة بـ"شجاعة الفصاحة "؛ لأنه ﷺ أقام الضمير في نقابها مقام المدينة من غير أن يسبق لها ذكر،و لذلك نظائر في القرآن الكريم كما في قوله تعالى:" و لو دخلت عليهم من أقطارها "يعنى: المدينة، و بلاغته ﷺ تنبثق من بلاغة القرآن ، وبيانه يأتي بعد بيان القرآن، وما ينطق ﷺ عن الهوى إن هو إلا وحي يوحىَ ، وهذا أسلوب لا يقدر عليه إلا من أوتى جوامع الكلم وكانت

---

[1] الفائق ٢/٣٦٦

ثقافته واسعة و أدبه جم و بلاغته عالية .وبالتأمل فى كلام الزمخشري يتبين لنا أنه ﷺ جعل الطاعون بمثابة جيش مغير على الحصون و الديار،ثم حذف المشبه به و رمز إليه بشيء من لوازمه،وهو قوله :نقابها وقد بين الشريف الرضي أمر هذه الاستعارة وضوحا بقوله:"وفى هذا الكلام استعارة حسنة ؛لأنه عليه الصلاة والسلام أقام هذا الداء المسمى بالطاعون في تغلغله إلى البلاد المنيعة،وذهابه بالأعلاق[١] الكريمة مقام الجيش المغير الذي يسوق على الأنشاز[٢] ويهجم على الحصون والديار،يقال:طلع فلان الثنية [٣] إذا أوفى عليها ،وقَرَع ذِرْوتها ،ومن حسن التمثيل وأوقع التشبيه أن تشبه أسباب الموت و طوارق الدهر بالجيش الهاجم" [٤] وهذا ما يجعل الاستعارة بليغة لحسن التصوير،واعتمادها على الواقع بإبراز المعقول فى صورة المحسوس مما جعلها ترسم صورة مرئية للطاعون تقهر النفوس وتغمرها كما يغمر الجيش الحصن،وزاد من خطورة هذا الوباء تحذير المعصوم ﷺ منه،وصاحب الفائق يدرك هذا الفهم دون أن

---

[١] الأعلاق : جمع علق و هو النفيس

[٢] الأنشاز : جمع نشز و هو المكان المرتفع

[٣] الثنية : العقبة و الطرق فى الجبل

[٤] المجازات النبوية صـ٣٥ ، ٣٦ . مع الهامش

يدل عليه بمصطلحه،ولكنه بذكر المعنى واضحاً قد تجاوز مدلول اللفظ الظاهر إلى استكشاف الدلائل العميقة والمعاني الباطنة،وعلم أن إثبات النقاب للطاعون قد عدل باللفظ عن جهته إلى طريق الاستعارة .

ومن هذا النوع ما جاء فى قول النبي ﷺ:" بُعثت في نَسَمِ الساعة ،إن كادت لتسبقني "

قال الزمخشري:"أي حين ابتدأت وأقبلت أوائلها،وأصله نَسَم الريح،وهو أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتدَّ قال أبو زيد:نسمت الريح تنسِم نسيماً ،إذا جاءت بنَفَسٍ ضعيف " [1]

هذا هو التحليل البلاغي الراقي ، حيث تجد الزمخشري يشرح معنى الاستعارة الواردة فى كلام النبي ﷺ بما يدل على حسه البلاغي و ذوقه العالي و إدراكه الجيد لمرامي الكلام و مقاصده ، فهوﷺ شبه الساعة بالريح ، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه،وهو قوله:"نسم"؛ لأنه لا نسم للساعة على الحقيقة،و قد أفادت الاستعارة المبالغة في قرب الساعة وقرب وقوعها، ويجوز أن يكون التركيب " كناية عن شدة القرب ؛ لأنه ﷺكنى عن ابتداء الساعة بالنسيم،و النسيم لابتداء الريح وهو

---

[1] الفائق : ٣/٤٢٢

ضعيف قبل شدتها "[١] و بذلك يتضح ما فى كلامه ﷺ من بلاغة وإيجاز ، حيث يمتاز بإصابة الهدف ،وقلة اللفظ مع كثرة المعنى،وضبط الفكرة، والرواية الأشهر فى الحديث:"بعثت في نفس الساعة " وبناءً عليها يكون قد شبه الساعة بإنسان له نفس، ثم حذف المشبه به، و رمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية .وقد كشف الأستاذ الأديب مصطفى صادق الرافعي عن بلاغة هذا الحديث بقوله:".. وإنما أفرد اللفظة و لم يقل" بعثت في أنفاس الساعة "؛ لأنها نفخة واحدة ،وهذا معنى آخر، فإن النفخة الشديدة متى جاءت من بعيد كانت كالنفس من الأنفاس، وليس المراد قرب الساعة أنها قدر اليوم أو غد على التعيين ، ولكن المراد أنها آتية لا ريب فيها،وأن ما بقى من عمر الأرض ليس شيئاً فيما مضى،وأن لا نظام لإنسان الدنيا إلا بأن يتمثل فى نفسه إنسان الآخرة، فالساعة من القرب كأنها من كل إنسان فى آخر أنفاسه،وهذا كله قد أصبح اليوم من الحقائق التي لا مرية فيها ،وفي تلك اللفظة معنى ثالث، كأنه يقول:إن عمر الأرض كان طويلاً فكانت الساعة بعيدة،ثم قصر هذا العمر،فبدأت الساعة تتنفس،وما يدرينا أنه قد حان أجل الأرض

---

[١] الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د / كمال عز الدين ص ٢٢٣

كما يحين أجل النهار عندما تبدأ الدقيقة الأولى من ساعة الغروب،ثم لا ينقضي هذا الأجل إلا فى الدقيقة الأخيرة من هذه الساعة،وبقى معنى رابع فى لفظة "نفس" و ذلك أنه يقال على المجاز فلان في نفس من ضيقه،إذا كان في سعة ومندوحة ،وقد عرف الضيق ما هو،بعد أن شد عليه و كتم أنفاسه، فيكون التأويل على ذلك أن الساعة آتية وأنها قريبة وأنها تكاد تكون،و لكن البعثة

فى نفس منها، فليعمل الناس لآخرتهم فإنه يوشك أن لا يعملوا، ثم ليعمروا أنفسهم قبل أن يعمروا أرضهم، فإن الساعة تطوى هذه و تنشر تلك " [1]

وهكذا كشف الإمام الزمخشري عن الاستعارة المكنية في كتابة الفائق في غريب الحديث .

المبحث الثالث:الاستعارة التمثيلية:

---

[1] البلاغة النبوية صـ ٨٣ ، ٨٤ و ينظر المجازات النبوية صـ ٣٨ والروائع و البدائع فى البيان لمحمد ابن نعمان الدين الندوى صـ ١٠٦ ، ١٠٧

الاستعارة إما مفردة كما سبق ، وإما مركبة ،وفى هذه الحالة تسمى استعارة تمثيلية أو مجاز مركب ،علاقتها المشابهة يقول الخطيب القزويني:"المجاز المركب : هو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة فى التشبيه ،أي: تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ، ثم تدخل المشبهة فى جنس المشبهة بها مبالغة فى التشبيه ، فتُذكَر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه" [١] ،فهي قائمة على تشبيه التمثيل، ولذلك تلمح فيها الصور الطريفة وتبعث فيك الإعجاب ، لذلك كانت من أكثر أنواع الاستعارة بلاغة وتأثيراً ، وإذا اشتهرت صارت مثلاً على ألسنة الناس ، يتناقلونها من غير أن يُغيروا فيها شيئاً ، وهذا هو مراد الخطيب فى قوله: ""فتُذكَر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه".

وهى جزء من الاستعارة لا تقوم إلا على علاقة المشابهة ؛لذلك قال سعد الدين التفتازانى : "إن حاصل هذه الاستعارة أن تشبه به إحدى الصورتين المنتزعتين من متعدد بالأخرى،ثم يدعى أن

---

[١] الإيضاح بتعليق البغية (١٢٦/٣) وينظر شروح التلخيص (١٤٢/٤،١٤١) وفن الاستعارة د/أحمد عبد السيد الصاوي صفحة (٩١).

الصورة المشبهة من جنس الصورة المشبه بها،فيطلق على الصورة المشبهة اللفظ الدال بالمطابقة على الصورة المشبه بها "[١].

"وسميت تمثيلية مع أن التمثيل عام في كل استعارة،للإشارة إلى عظم شأنها،كأن غيرها ليس فيه تمثيل أصلا ؛ إذ هي مبنية على تشبيه التمثيل ،ووجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد ؛لهذا كان أدق أنواع التشبيه ، وكانت الاستعارة المبنية عليه أبلغ أنواع الاستعارات ، ولذلك كانت غرض البلغاء" [٢].

وقد تناول الإمام الزمخشري الاستعارة التمثيلية في كتابه الفائق كما تناول غيرها ،وكما ذكَرتُ سابقاً أنه كان يطلق المثل أو التمثيل على غير صور الاستعارة التمثيلية ؛لأنه كان يعبر عنها بالمعنى اللغوي ، ولذلك تجده يطلق على الاستعارة التمثيلية أيضاً لفظ التمثيل ، ولكنه جعله مصطلحاً عاماً ، وهو بذلك كان يتساهل فى استعمال المصطلحات البلاغية التى حُدد مدلولها بعد ذلك بدقة،وقد عرض فى كتابه كثيراً من الاستعارات التمثيلية ، وأفصح عن التشبيه الذى قامت عليه ، وشرحه لها يدل على ذوقه البلاغي وإحاطته بكثير من الأساليب ،

---

[١] المطول (٢٣٩) وينظر التعبير البياني صفحة ١٢٦ د/ شفيع السيد.

[٢] جواهر البلاغة السيد أحمد الهاشمي صفحة (٢٥٨).

واستشهاده بما جاء فى أشعار العرب ، فيتذوق بلسانهم ، ويعبر عن المعنى المراد والغاية المرجوة من التعبير.

من ذلك ما جاء فى حديث معاوية – رضي الله عنه – قيل له : أخبرنا عن نفسك فى قريش ؟ فقال:" أنا ابن بُعْثُطِها واللهِ ما سُوبِقْتُ إلا سَبَقْتُ، ولا خُضْتُ بِرِجْلٍ غَمْرَةً إلا قطعتُها عَرْضاً".

قال الزمخشري: "البُعثُط: سرّة الوادي،أراد أنه من صميم قريش وواسطتها، وخوض الغمْر عرْضاً أمر شاق لا يقوى عليه إلا الكامل القوة،يقال:إن الأسد يفعل ذلك ،والذي عليه العادة اتّباعُ الجِرْيَة حتى يقع الخروج ببعدٍ من موضع الدخول ،وهذا تمثيل لإقحامه نفسه فيما يعجز عنه غيره،وخوضه فى مستصعبات الأمور ،وتفصّيه منها ظافرًا بمباغيه"[1] .فتجد الزمخشري يشرح المعنى المراد من قول سيدنا معاوية،ويبين التمثيل الوارد فيه، وهو تشبيه حال نفسه وهو يقحم نفسه فيما يعجز عنه غيره ويخوض مستصعبات الأمور والقضايا الشائكة، ثم يخرج منها منتصراً ظافراً بحال أسد قوي يخوض الغمْر عرضاً وهو أمر شاق ثم يخرج منه سالما منتصراً ظافراً ، والزمخشري يشرح صورة التمثيل فى ضوء

---

[1] الفائق (١/١٢٠)

حياة العرب التى ألِفُوها وتأثروا بها حتى أصبحت منبع هذا التصوير.

وهذا أمر عُنى به الزمخشري فى شرحه للحديث أو الأثر ، إذ كان يربط التعبير البياني بحياة القوم وعاداتهم وما فى بيئاتهم من صور وأحداث يقول – رحمه الله – فى قول النبي ﷺ: (من أشراط الساعة أن تُعَطَّل السيوف من الجهاد، وأن تُختَل الدنيا بالدين).

" خَتَل الذئب الصيد :إذا تخَفَّى له،وخَتْل الصائد: مَشْيُه للصيد قليلا قليلا فى خُفية لئلا يُسْمَعَ حِسًّا ،فشبه فِعْلُ من يُرِى ديناً وَوَرَعاً، يتذَرّع بذلك إلى طلب الدنيا ، بخَتْل الذئب والصائد"[1]، فقد أفصح الزمخشري عن الاستعارة التمثيلية ، وبين التشبيه التمثيلي الذى قامت عليه ،مما يدل على ذوقه البلاغي ، ومعرفته للمراد وفهمه له ، وفيها شبه النبي ﷺ من يتخفى بين الناس فى الورع والزهد والتدين، وهو لا يريد إلا منفعة دنيوية، أو ثناءَ الناس عليه، بحال الصائد أو الذئب الذى يتخفى ويتحرك تجاه صيده فى خفية وبطء حتى لا تحس به فريسته بجامع الهيئة

---

[1] الفائق (١/٣٥٤)

الحاصلة من الحركة الخفيفة البطيئة فى طريق معلوم لغرض أو حاجة.

وبذلك يكون قد كشف الزمخشري عن صورة بيانية بليغة أصابت قلوب السامعين ، وملكت عليهم عقولهم ، والمتأمل فيها يرى أبلغ وصف وأوجز عبارة قيلت فى حال المسلمين اليوم ،من ترك للجهاد وإقبال على الدنيا بكل وسيلة ،وما أكثر الذين يتخذون الدين طريقاً لتحقيق منافعهم ومصالحهم الشخصية .

ومن هذا النوع ما جاء فى قول على- رضي الله عنه- في وصف رجل بعيدٍ عن الله يبغضه الله: "ألا وإن أبغض خلق الله إلى الله رجل قَمَشَ علما[1]،غَارّاً بأغباش الفتنة... ولا يَعَضُّ فى العلم بضرس قاطع فيغْنَمْ ".

قال الزمخشري:" الضِّرْس واحد الأضراس،وهى عشرون ضرساً، تلي الأنياب من كل جانب من الفم،خمسة من أسفل، وخمسة من فوق، وهو مذكر، وربما أُنِّثَ ، وهذا مَثَلٌ لعدم إتقانه"[1].فقد شرح المعنى و وضحه فذكر أن سيدنا عليًا شبه حال هذا

---

[1] القمش : الجمع من هاهنا وهاهنا ، ومنه قماش البيت لرديء متاعه ، والغارّ : الغافل المغتر ، والأغباش : جمع غبش ، وهو الظلمة في آخر الليل ينظر الفائق (٢/١٧)

[1] الفائق (٢/١٧)

الإنسان البعيد عن الله، ولا يتقن أعماله وطاعاته فيثاب عليها بحال إنسان آخر لا يجيد العض بأضراسهِ على الطعام،فلا ينتفع بما يدخل جوفه بل يكون سبباً فى هلاكه وألمه ،ثم حُذف التركيب الدال على المشبه و استعير التركيب الدال على المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية ،وتعبير الزمخشري بالمثل دليل على شيوع هذه العبارة و ذيوعها ذيوع الأمثال، فتقال لكل واحد يشبه حاله حالها .

ومن روائع ما أشار إليه ما ذكره فى قول النبيﷺ:"لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفِئ ما فى صحفتها،و إنما لها ما كُتب لها

قال:" اكْتِفَاتُ الوعاء:إذا كببتَه فأفرغت ما فيه إليك،وهذا مَثَل لاجتيازها نصيب أختها من زوجها . والصَّحْفة : القصعة التى تشبع الخمسة " [٢]

فقد ذكر- رحمه الله – أن الحديث مثل ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الاستعارة التمثيلية ، و فيها شبه إمالة الضرة حق صاحبتها من زوجها إلى نفسها عندما تسأل طلاقها بحال امرأة اكتفأت ما في إناء أختها أي قلبته لتستفرغ ما فيه،و تستأثر هي عليه.وقد صورتها الاستعارة التمثيلية بهيئة لا تسُر، إنها امرأة نهمة أقدمت

---

[٢] الفائق (٣/٢٦٦)

على آنية من طعام لامرأة غيرها ، فأفرغت ما فى إنائها حشعاً و تبجحاً ، و للتعبير هنا أسراره : فللطعام لذة ، و عليه تقوم الحياة ،إيماءً إلى أثر التدمير لحياة أسرة ، و استفراغ الصحفة والإتيان عليها حرمان للزوجة من حق الحياة ، مع ما فى الاستفراغ من بشاعة وتسفل ،ولما كان للمرأة رجل واحد كان لها عصمة وحياة زوجية كالصحفة يشاركها الزوج فيها ،وهى خاصة بها،فاستفراغها بتطليقها تعدّ على أقدس الحقوق وأخصها، وتهاون بمشاعر الناس وسعادتهم و كفى بهذا تنفيراً زاجراً"[1] و قد أدت الاستعارة التمثيلية حقها فى أداء المعنى ، وإصابة الهدف؛ لما فيها من تجسيد و انتقال بالمعنى من الخفي إلى الجلي ومن معنى يدركه العقل إلى صورة تراها العين ، وهذا من المعانى الجديدة المبتكرة للنبي ﷺ هذا فضلاً عما فيها من إيجاز بديع،ولا عجب فى ذلك فقد أوتيَ ﷺ جوامع الكلم .

" ولم يسمع الناس بكلام قط [بعد كلام الله تعالى]أعم نفعاً و لا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً و لا أكرم

---

[1] البلاغة النبوية د / صباح دراز صـ٣١٦ . دكتوراه مخطوطة في كلية اللغة العربية

مطلباً ، و لا أحسن موقفاً ، ولا أسهل مخرجاً، و لا أفصح عن معناه ، و لا أبين عن فحواه من كلام النبي ﷺ" [1]

خاتمة

---

[1] البيان و التبيين للجاحظ (٢/٨)
١٥٩٤

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفصح من نطق بالضاد ، وعلى آله وأصحابه أهل التهذيب والإرشاد : وبعد

فهذا بحث متواضع عن الاستعارة وأثرها البلاغي في كتاب الفائق للزمخشري حاولت فيه أن أبرز بعض اللمحات البلاغية للإمام الزمخشري في هذا الكتاب الذي أثرى به المكتبة العربية،وذلك عن طريق الاستعارة،وتحدثت فيه عن الغريب وسبب وجوده،حتى يزول من الوهم أن الغرابة لا تتفق ومهمة الرسول ﷺ وهي البيان،وذكرت صور الاستعارة في هذا الكتاب،وظهرت لي عدة نتائج أجملها فيما يلي:

أولا: ليس في كلام النبي ﷺ غريب ووحشي يرفضه الطبع،وإنما كانت ألفاظه ﷺ موجهة إلى أناس قلوبه واعية ،وأسماعهم مصغية،وقد يتكلم النبي ﷺ في بعض النوازل،وبحضرته أخلاط من قبائل العرب، لغاتهم مختلفة ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية،فيجتمع في الحديث الواحد عدة ألفاظ مختلفة، موجبها شيء واحد .

ثانيا:كان اللسان العربي في عصر الصحابة صحيحا إلى أن فُتحت الأمصار وخالط العرب غيرهم من العجم فامتزجت الألسنة،وتعلم الأولاد من اللسان العربي ما لابد لهم،وتركوا ما

عداه،فصرف العلماء طَرَفاً من عنايتهم،فألفوا في هذا الفن حراسة لهذا العلم .

ثالثا:كشف البحث عن ذوق الزمخشري البلاغي،وعقله الحاضر،وقدرته الفائقة على الجمع بين الأشباه والنظائر من النصوص، حيث كان متبحرا في العلوم الإسلامية والعربية،ملما بالوسائل التي تمكنه من إدراك محاسن الكلام ومساوئه،لذا شارك في الكشف عن بلاغة النبي ﷺ وبلاغة أصحابه الذين تربوا على يديه وقبسوا من بيانه.

رابعا:كشف البحث عن استخدام الزمخشري لمصطلح الاستعارة كثيرا في كتابه الفائق ،وكانت أداته يكشف بها عن جمال التعبير وأثرها على المعنى .

خامسا:استعمل الزمخشري مصطلح الاستعارة بمعناه اللغوي، وقد شاع كثيرا في كتابه، لكنه لم يذكر نوعها ولا مرة واحدة،وإنما تناولها على صور متعددة،فتجده يصرح بلفظ الاستعارة فقط، أو يصرح بلفظ التشبيه،وهو لا يقصد التشبيه الاصطلاحي،وإنما يعبر عنه باعتباره أصلا تقوم عليه الاستعارة، أو يصرح بلفظ المثل أو التمثيل،وإنما كان ذلك منه على التوسع،فضلا على أن كتابه ليس خالصا في البلاغة،والرجل كانت وجهته في المقام الأول

متجهـة إلى بيـان الغريـب في الأحاديـث والآثـار،ولم تسـتقر المصطلحات البلاغية في عصره .

سادسا:ظهرت صور الاستعارة التصريحية بنوعيها الأصلية والتبعية في كتـاب الفـائق أكثـر بصـورة واضـحة مـن الاسـتعارة المكنيـة والاسـتعارة التمثيليـة، وكانـت استعارة المحسوس للمعقـول أكثـر أنواعها وهو ما يتناسب مع شرح الغريب وبيان المراد .

سابعا: ظهـر واضـحا في منهج الزمخشري في بيـان الغريـب، أنه كان يربط التعبير البياني بحياة القوم وعاداتهم ،وما في بيئاتهم من صـور وأحـداث ،حـتى يكـون المعـنى قريبـا مـن نفوسـهم مألوفـا ومأنوسا عندهم .

والحمد لله الذي به تتم الصالحات، وصلّ اللهم وسلم على خاتم النبيين وإمام المتقين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

د/ أحمد أحمد محمد شكم

ثبت بأهم المراجع والمصادر

- القرآن الكريم .

. أثر التشبيه فى تصوير المعنى " قراءة فى صحيح مسلم " د/ عبد البارى طه سعيد سنة ١٤١٢هـ .١٩٩٢م الطبعة الأولى ، يطلب من مكتبة وهبة . القاهرة

- إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى للعلامة القسطلانى ط/المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٠٤ هـ .

- أساس البلاغة للزمخشرى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٥م .

- أساليب البيان والصورة القرآنية دراسة تحليلية لعلم البيان د/ محمد إبراهيم شادى ، ط: دار والى الإسلامية ، المنصورة ،ط/ أولى ١٤١٦هـ.١٩٩٥م .

- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ، قرأه وعلق عليه الشيخ محمود محمد شاكر الناشر مطبعة المدنى بالقاهرة . الأول ١٤١٢هـ. ١٩٩١م.

. الأعلام لخير الدين الزركلى ط/دار العلم للملايين بيروت لبنان بدون تاريخ .

- الأم للإمام الشافعى ط / دار المعرفة . بيروت . لبنان سنة ١٣٩٣هـ ط/ الثانية .

- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى . الناشر مكتبة الآداب القاهرة ١٤٢٠هـ /١٤٢١هـ ١٩٩٩/٢٠٠٠ م .

١٥٩٨

. البحث البلاغى عند أبى على الفارسى أد/ فوزى السيد عبد ربه ، ط/ الحسين الإسلامية الطبعة الأولى ١٤١٠هـ. ١٩٨٩م.

ـ بحوث فى البيان تأليف د/ محمود السيد شيخون ط/ المؤلف بدون تاريخ .

ـ البرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ط/ دار الجيل. بيروت سنة ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م .

ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للشيخ عبد المتعال الصعيدى ط/ مكتبة الآداب . القاهرة ١٤٢٠هـ / ١٤٢١هـ. ١٩٩٩/٢٠٠٠م .

. البلاغة العالية (علم البيان) تأليف عبد المتعال الصعيدى ط/ مكتبة الآداب القاهرة. الأولى ١٤٢٠هـ. ٢٠٠٠م .

ـ البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع) د/ فضل حسن عباس ، ط/ دار الفرقان عمان الأردن ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

. البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية د/ محمد محمد موسى ، الناشر مكتبة وهبه . القاهرة. الثانية سنة ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.

. البلاغة النبوية تأليف مصطفى صادق الرافعى ط مكتبة الآداب القاهرة ،بدون تاريخ .

. البيان النبوى د/ محمد رجب البيومى ط/دار الوفاء ط/ثانية سنة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م .

ـ البيان والتبيين للجاحظ تحقيق وشرح الأستاذ / عبد السلام هارون سلسلة الزخائر الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م.

. تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعى ، مطبعة الاستقامة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٩هـ. ١٩٤٠م .

ـ التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الناشر دار سحنون للنشر والتوزيع . تونس ، بدون تاريخ .

ـ التصوير البيانى د/ حفنى شرف ط/ مكتبة الشباب سنة ١٣٩٠هـ . ١٩٧٠ . التصوير الفنى فى الحديث النبوى د/ محمد لطفى الصباغ ط/ المكتب الإسلامى سنة ١٤٠٩هـ. ١٩٨٨ م ، ط/ الأولى .

ـ التعبير البيانى رؤية بلاغية نقدية د شفيع السيد ط دار الفكر العربى ط الثانية ١٩٨٢م .

. جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع للسيد أحمد الهاشمى ط/ دار ابن خلدون . القاهرة بدون تاريخ .

١٦٠٠

-حاشية الشهاب المسماه عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي . للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ، تحقيق عبد الرازق المهدي . ط : دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولي ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

. الحديث النبوى من الوجهة البلاغية د/ كمال عز الدين ط/ دار اقرأ بيروت سنة ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م ط/ أولى .

ـ دلائل الإعجاز للشيخ الإمام عبد القاهر الجرجانى ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى بالقاهرة ، ط/ ثالثة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن علان الصديقي الشافعي ط/ دار القلم للتراث . القاهرة، ط/ الثالثة بدون تاريخ .

. الروائع والبدائع فى البيان النبوى لمحمد نعمان الدين الندوى ط/ دار الصحوة . القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ. ١٩٩٦م .

ـ الاستعارة فى لسان العرب د/ أحمد هنداوى هلال ط/ مكتبة وهبه القاهرة ، سنة ١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م ط/ أولى .

ـ سنن الدارمى لعبد الله بن عبد الرحمن أبى محمد الدارمى ت(٢٥٥) هـ ط/ دار الكتاب العربى ، لبنان . بيروت ، عام

١٤٠٧هـ أولى ، تحقيق / فواز أحمد زمركى وخالد السبع العلمى

.

ـ سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث أبي داود السجستانى الأزدى ت(٢٧٥)هـ ط/ دار الفكر . بيروت تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد .

ـ شرح صحيح البخارى للكرمانى ط/ دار إحياء التراث العربى لبنان . بيروت ط/ ثانية سنة ١٤٠١هـ . ١٩٨١م .

ـ صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان أبي حاتم التميمى البستى ت(٣٥٤)ط/ الثانية تحقيق شعيب الأرناؤط .

. الصورة البيانية دراسة بلاغية ونقدية د/ محمد أحمد عثمان خيمر ط/ مصر للخدمات العلمية . القاهرة ط/ أولى سنة ١٤١٧هـ . ١٩٩٦م .

ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى اليمنى ، تحقيق مجموعة من العلماء ط/ دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م .

. عمدة القارى شرح صحيح البخارى لبدر الدين محمود بن أحمد العينى ت(٨٥٥) هـ ط/ دار إحياء التراث ، بيروت لبنان ، ط/ دار الفكر . لبنان .

١٦٠٢

. العمدة فى صناعة الشعر ونقده تأليف أبي على الحسن بن رشيق القيروانى ت(٤٦٣) هـ ط/ مكتبة أمن هندية بالموسكى . القاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٤ هـ . ١٩٢٥م .

. غريب الحديث لأبي سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستى ت(٣٨٨) هـ ط/ جامعة أم القرى مكة المكرمة سنة ١٤٠٢هـ تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوى .

ـ الفائق فى غريب الحديث للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ت(٥٣٨)هـ ط/ دار الفكر سنة ١٤١٤هـ . ١٩٩٣م ، ط/ دار المعرفة بيروت لبنان ط/ الثانية .

. فتح البارى شرح صحيح البخارى لأحمد بن على بن حجر أبي الفضل العسقلانى الشافعى ت(٨٥٢)هـ ط/ دار المعرفة . بيروت تحقيق محب الدين الخطيب ، ط/ دار الريان للتراث . القاهرة ط/ الثالثة ١٤٠٧هـ .

ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للعلامة محمود ابن عمر الزمخشرى ت(٥٢٨) هـ ط/ دار الريان للثراث القاهرة . الثالثة سنة ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م .

ـ لسان العرب لابن منظور ط/ دار الحديث القاهرة سنة ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م

ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين ابن الأثير تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط/ المكتبة العصرية -بيروت ١٤١٦هـ . ١٩٩٥م.

ـ المجازات النبوية تأليف أبي الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين المعروف بالشريف الرضى ت(٤٠٦) هـ تحقيق / طه عبد الرءوف سعد ط/ مطبعة مصطفى البابى الحلبي الطبعة الأخيرة سنة ١٣٩١هـ . ١٩٧١م .

ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلى بن سلطان محمد القارى ت(١٠١٤) هـ ط/ دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان سنة ١٤٢٢هـ ط أولى ، تحقيق جمال عيتانى .

ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضى أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى البستى المالكى ط/ المكتبة العتيقة ، ودار التراث بدون تاريخ

ـ المطول فى شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين مسعود التفتازانى الهروى الناشر المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة ١٣٠٣هـ .

. النهاية فى غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبي السعادات ابن الأثير

الجزرى ت(٦٠٦)هـ ط/ دار إحياء الكتب العربية تحقيق طاهر أحمد الزاوى ،ومحمود أحمد الطناحى . بدون تاريخ .

١٦٠٤